من أجل دراسة حَفْرِيَّة للمخطوط العربي

"محاولات تطبيقية في علم المخطوطات"

الدكتور مصطفى الطوني

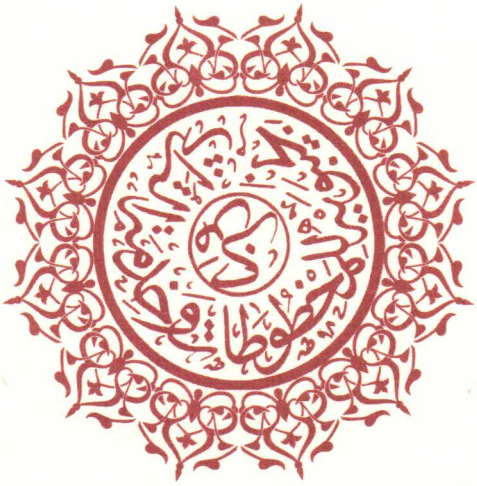

نبذة تعريفية بالمؤلف

* أستاذ جامعي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة ابن زهر / أكادير / المملكة المغربية.
* حاصل على دبلوم الدراسات العليا في علم المخطوطات.
* حاصل على الدكتوراه في علوم الكتاب.

من مؤلفاته:

* مقالات في علم المخطوطات، منشورات دار القلم، الرباط، 2000 م
* نافذة لعويل الريح، ديوان شعري، منشورات الرابطة المغربية للأدب المعاصر، وأكاديمية وزارة التربية الوطنية بالجديدة، 2002 م.
* معجم مصطلحات المخطوط العربي [قاموس كوديكولوجي]، بمعية د.أحمد شوقي بنبين، منشورات الخزانة الملكية [الطبعة الثالثة 2005].
* "تاريخ خزائن الكتب بالمغرب" لأحمد شوقي بنبين، ترجمة مصطفى الطوبي منشورات الخزانة الحسنية – 2003م.
* فهرس مخطوطات النحو والصرف بالخزانة الحسنية [كتاب مشترك] منشورات الخزانة الحسنية 2003 م.
* فهرس مخطوطات اللغة بالخزانة الحسنية [كتاب مشترك] منشورات الخزانة الحسنية، 2003 م.
* الإسهام في ترجمة كتاب: "المدخل إلى علم الكتاب المخطوط بالحرف العربي" تنسيق فرانسوا ديروش، منشورات مؤسسة الفرقان بلندن 2005 م.
* "مدخل إلى علم المخطوط" لـ "جاك لومير" ترجمة مصطفى طوبي، منشورات الخزانة الحسنية 2006م.

من أجل دراسة حفرية للمخطوط العربي

محاولات تطبيقية في علم المخطوطات

تأليف

الدكتور مصطفى الطوبي

حُقُوقُ الطَّبعِ مَحفُوظَة

رقم الإيداع
2010 MO 2291
ردمـــك
978-9954-30-021-3

التوزيع في جمهورية مصر العربية

دار نجيبويه للبرمجة والدراسات والطباعة والنشر

16 شارع ولي العهد - حدائق القبة – القاهرة

☎: 24875690 – 24875704

محمول: 0106669912

www.najeebawaih.net

يطلب الكتاب في المملكة المغربية من المؤلف

☎: 0663006123

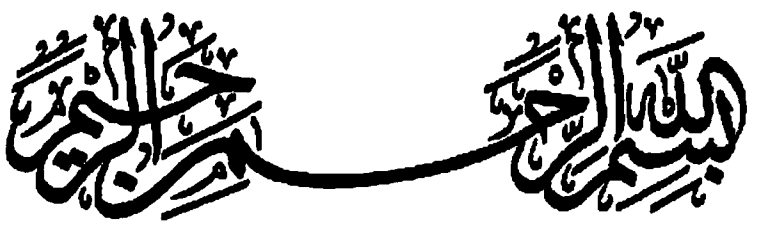

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾

صدق الله العظيم

المقدمة

يعتبر "علم المخطوط" في الثقافة العربية مجالا معرفيا جديدا ينزع إلى فحص المخطوطة في صورتها المادية ملتمسا في ذلك طريقة الحفر، وما كتب حوله إلا القليل من الدراسات المختلفة في التصور النظري والمنهجي. وما نعبأ بما كتب في دراسة المخطوطات، أو وصفها، أو فهرستها، أو التأريخ لها بشكل ارتجالي. إذ إن العطاء في هذه المجالات غزير، بيد أن التبصر النظري بالعلم فيها قصير.

وقد هرع سواد عظيم من الباحثين إلى تسربل العلم، وأبقوا على اشتغالهم الفقهي بالمخطوطات؛ فكتبوا في أدبيات التحقيق، والنساخة والنساخ، والإخراج، والطرر النصية الملازمة للنسخ، وختميات النصوص، بشكل مفكك لا يعروه رابط، ولا يلحمه تبين منهجي ضابط، وإنما همهم أن يكونوا رائدين في علوم مستعارة، ومبرزين في معارف مختارة. ونحن، اعتبارا لذلك، نبقي اشتغالهم في المعرفة العامة بالمخطوطات إيمانا منا أن المعرفة متاحة للناس بأشكال منهجية وطرائق مختلفة، ونخرجها من علم المخطوط بمفهومه الدقيق، إلا إذا تبين لنا أنها مستجيبة للتصور النظري للعلم.

فالفهرسة مثلا يصح أن نسميها فهرسة علمية ضافية إذا تناولت الأبعاد المادية في المخطوط، وإلا بقيت فهرسة تقليدية تتحرك في إطار معرفي ضيق.

إن الباحثين، في الفترة الجنينية لعلم المخطوط، قد تباينوا بخصوص هذا

العلم واختلفوا فيه؛ فهناك من اعتبر دراسة الوعاء المادي مقصدا أساسا، ودونه سنكون بإزاء معارف أخرى. وهناك من اعتبره ضروريا، ولكنه يأتي في مرحلة ثانية بعد الفهرسة، ودراسة خارجيات النص المتمثلة في بدايات النصوص، ونهايات النصوص، وحرود المتن، والتعقيبات، والوقفيات، والإجازات، وقيود البيع، والشراء، إلخ.

وفوق هذا، فالعلماء قد اختلفوا بخصوص علمية علم المخطوط؛ ففريق ألحقه بالتاريخ، وجعله متخصصا في دراسة الوثائق التي يعتمدها الباحث دراسة خارجية. وفريق خصه بالاستقلالية، وعده علما قائما بذاته. وفريق آخر جعله مجالا معرفيا فضفاضا يسع العديد من العلوم المرتبطة بالكتاب، بيد أن هذا الفريق الأخير لم يستقر على رأي، ولم تكن له الجرأة في الإفصاح عن رأيه الخاص. والسبب في رأينا يعود إلى افتقاره إلى سلاح منهجي يذود به عن خياراته المنهجية الكبرى، ورغبته في أن ينخرط في هذا العلم الجديد في الثقافة العربية بالشكل الذي أراد هو، وبالمنهج الذوقي الذي لا يكلفه محاسبة ابستيمولوجية دقيقة. فتحول كل الألى اشتغلوا بالمخطوطات في العالم العربي إلى علماء مخطوطات بتطويع بضاعتهم إلى حرمة هذا العلم، وباندفاع وجداني، وثقة عمياء في معارفهم الخاصة، وإن كللوا هذا الاندفاع وهذا الحماس بشيء قليل من المصطلحات المستعارة.

ولعل الإشكال الابستيمولوجي الجوهري الذي نبديه بهذا الخصوص هو ضرورة الاحتراس بما يراد من مصطلح "العلم" في ذاته؛ فالعلم ينزاح عن المعرفة بخصائص يجب وضعها في الاعتبار.

وحينما نزمع الحديث في هذا الباب من أبواب علم المخطوط وفق التأسيم

المتفق عليه، فلا لأنه معرفة قبلية وجدت في هذا المصنف أو ذاك من مصنفات العلم، ولكن لأن التقنين العلمي أوجدها أو أتاح وجودها.

وهكذا قد تظهر لنا أبواب علم المخطوط متباينة مختلفة، إلا أنها تجتمع في مجموعة من القوانين المنظمة لها، وتتحد في مجموعة من آليات الاشتغال المتناسبة بشكل واضح مع النظرية. فنحن نتحدث، على وجه الصحة، عن مفاتيح تفسيرية لظاهرة المخطوط لا تؤكدها إلا الملاحظة المباشرة، وكمية المادة الملاحظة.

إن مثل هذه المفاهيم العلمية الكمية ذات البعد النظري هي التي ستكون محركنا في هذا المجموع التطبيقي، ونحن نعتبر كلامنا إيماء إلى تركيب نظري يفتقر إلى مادة علمية أكثر غزارة، ولسنا في عملنا من دعاة الملاحظة المحضة، والتجربة الخالصة، وإنما نفوت الأولوية للعقل ووضع النظرية. بيد أن هذين العنصرين يبقيان أعميين إذا لم تعكسهما الملاحظة المباشرة للمخطوطات. فالعلم موجود في صميم معمارية العقل البشري، وهو في أصله تنظيم محكم للمعطيات، والسير بها نحو التوحد. إن منهجنا إذن يقوم على ثنائية النظرية والملاحظة. فنحن إذن سننطلق مما لاحظناه بشكل مباشر، أو مما لاحظه الآخرون.

واضح إذن أننا ننشد من القارئ المحترم أن يسمح لنا لكوننا سنرغب عن نثر المعلومات الفقهية أو جمع المادة الخام ورصها بين دفتي هذا المجموع بشكل فج وغرير، ، ولسنا عازفين عن هذه الأشياء البتة، وإنما مشروعية وجودها هو تعزيز القوانين التي سنخلص إليها بعد مناقشة علم المخطوطات كما فهمه العلماء. واقتراح تصور بسيط ومرن لهذا المجال العلمي يعصمنا من الاختلاف والبلبلة التي ترتبت على مرونة الاستيعاب النظري لهذا العلم.

يلحم هذا المجموع، إذن، عنصر منهجي مشترك وهو الاطمئنان إلى العناصر المادية في المخطوط، ومساءلة هذه العناصر وفق تصور مبسط لعلم المخطوط. ونحن سنقدم على تقديم هذا التصور، بعد الإشارة إلى طبيعة الاختلاف في استيعاب هذا العلم، ثم ستكون لنا بعد ذلك مجموعة من الدراسات التطبيقية لهذا العلم سواء في صورته العامة على النحو الذي نجد في دراسة مخطوطات النحو بالخزانة الحسنية بالرباط، ودراسة مخطوطات القدس الشريف في المغرب، أو بشكل جزئي كما هو الأمر في دراسة ظاهرة الوقف، ومسألة بداية النصوص في مخطوطات المقري في المغرب.

وهي أبحاث تلحمها النظرية التي تنطلق منها، من منطلق أننا بلورنا تصورا خاصا لعلم المخطوطات قوامه موضوع الحفر فكان الحفر عندنا نوعين؛ الحفر التقني والحفر النسقي. ويجب أن نصرح في مستهل هذا المجموع أننا مقلون في التطبيق، وأن اشتغالنا الميداني مازال في بدايته، وأن المادة التي وقفنا بها عبر ما سنذكره في هذه الأبحاث، وعبر ما يتعذر الإفصاح عنه هي أصغر من أن نذكرها في هذا الباب، لأن التركيب في مجال المخطوطات يمر عبر ملاحظة أقصى ما يمكن من هذه المادة، وإلا بقينا في إطار الأوصاف العابرة والأحكام اللحظية.

نحن نعتبر هذا المجموع استمرارا في الإرهاص النظري رغم كونه تطبيقيا في أغلب فصوله، والسبب هو افتقادنا إلى للأرضية التاريخية الضرورية لذلك هدفا في التمهيد للاشتغال الموسوعي بثقافة المخطوط العربي، وقد أذهب بشكل مسؤول، مثلا، إلى أن كتاب "تاريخ الوراقة المغربية" لصاحبه العلامة محمد المنوني هو بادرة ضرورية لإقامة هذا العلم، ونحن نطمع في مزيد من

الاشتغال الجهبذي الموسوعي على هذا الشكل الذي يتعقب جزئيات المخطوط العربي حسب الأزمنة والأمكنة، فنقيم موسوعات في الخط العربي، وموسوعات في التسفير، وموسوعات في النمنمة والزخرفة، وموسوعات في الورق وأنواعه، وموسوعات في علامات الورق، وموسوعات في أنواع الكراريس، وتركيب الصفحات. وتكون هذه الأعمال الأولية أساسا صلبا لعلم المخطوط. ومن شأن هذه الموسوعات أن تنقص من نطاق الملاحظة التي هي ضربة لازب لعالم المخطوط.

نرجو أن نوفق في هذه البادرة في مزيد من التعريف بهذا العلم الفتي في الوطن العربي وما توفيقنا إلا بالله.

دكتور مصطفى الطوبي

أكادير 2010/9/4

الصورة المادية للمخطوط العربي

الصورة المادية للمخطوط العربي

قبل الحديث عن هذه الكيفية الجديدة في التعامل مع المخطوطات وفق ما أصبح يسمى بعلم المخطوط، أرى من الأنسب أن أقدم تعريفا للمخطوط على أساس أنه يشكل العنصر الرئيس في هذا العلم، فما هو المخطوط إذن؟

إن أول شيء يمكن أن نذهب إليه هو حداثة مصطلح "مخطوط" manuscrit، إذ لم يكن متداولا قبل اختراع الطباعة، وهكذا فلم يستعمل في اللغة الفرنسية والإنجليزية إلا في سنة 1594م، واستعملت هذه المادة في اللغة العربية في صيغة الفعل، مثلما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [سورة العنكبوت آية: 48]. فهو إذن جاء مقابلا لكلمة "مطبوع"، هذا ناهيك على أن معناه اللغوي أخذ من خط الشيء، يخطه خطا: كتبه بقلم أو غيره[1].

وللأستاذ أحمد شوقي بنبين في هذا الباب اجتهادات لافتة للنظر[2]. والمخطوط أشكال وأنواع؛ إذ نتحدث في إطار الشكل عن الكراس أو "الكوديكس" وهو الكتاب بصورته المستطيلة أو المربعة والذي يتشكل من مجموعة من الملازم وغلاف، وهناك اللِّفَافَة بكسر اللام وهي الشكل الذي كان سائدا قبل الكراس، وهي عبارة عن صحائف متتابعة في عمود واحد تقرأ

---

(1) لسان العرب مادة: خطط.

(2) ينظر كتاب الأستاذ أحمد شوقي بنبين: دراسات في علم المخطوطات والبحث البيليوغرافي، ص 13، مراكش، الطبعة الثانية: 2004.

متوالية بعد فكها من المحور، وهناك الكتب المروحية[1]؛ وهي كتب في شكل الكراس إلا أنها مختلفة من الداخل. أما من حيث نوعية المخطوط؛ فهناك المخطوط العادي، والمخطوط النفيس أو الخزائني، والمخطوط النادر، والمجموع، والكناش[2]، والكشكول[3]، والفهرسة. وخزائنية المخطوط تكمن في أناقة كتابته المذهبة، أو زخارفه اللافتة للنظر. أما المخطوط النادر، فندرته تكمن في موضوعه؛ كأن يكون كتابا غميسا لم يعرف من قبل، وفي مادته أو وعائه؛ كأن يكون مكتوبا على الرق مثلا، أو على مادة البردي، أو اللخاف، أو الحرير، أو ما شابه هذا مما ذكر في مواد الكتابة في التاريخ القديم. لقد كان ينظر إلى هذا المخطوط على أساس أنه حصيلة من المعلومات بصرف النظر عن الجانب الحفري فيه. وما زالت ثلة كبيرة من فقهاء المخطوطات تنظر إلى المخطوط بهذه الطريقة إلى الآن، إذ لا تُقوّم المخطوط إلا من خلال الموضوع الذي يعالجه، فإن كان تأليفا مغمورا أو نادرا فهو حسن مقبول، وإلا فإنه مخطوط مجتر لا فائدة فيه. وهذا الواقع هو ما جعل المخطوط يحظى باهتمام نوعي في إطار علم المخطوطات أو "الكوديكولوجيا". فما هو هذا العلم إذن؟ وما هو الاقتراح الذي نتقدم به في هذا الباب؟

---

(1) Bosch Gulnar ,Carswell John and Petherbridge Guy , Islamic bindings and bookmaking ,Chicago , The Oriental Institute, 1981

(2) دفتر تقيد فيه الفوائد والشوارد. وقد تسجل فيه مختارات القراءة والسماع. وهو لفظ سامي الأصل استعمل في اللغة السريانية "كوناش".

(3) تذكرة يجمع فيها صاحبها ما يراه مناسبا من أفكار ومعلومات.

مفهوم علم المخطوطات:

إنه المرادف للمصطلح المعرب " كوديكولوجيا"Codicologie, وقد عرفناه في "معجم مصطلحات المخطوط العربي". بما يلي: "علم المخطوط بالمفهوم الحديث وهو دراسة المخطوط باعتباره قطعة مادية، والمصطلح من وضع العالم الفرنسي "ألفونس دان" Dain .(A)، والكلمة مركبة من اللفظة اللاتينية" كوديكس" Codex أي كتاب، ومن اللفظة اليونانية "لوجوس" Logos بمعنى دراسة. وقد دخلت المعجم الفرنسي سنة 1959م"[1]، وقد يراد به عند القدماء مفهوم الوراقة[2]، أو كل ما يتعلق بالمخطوطات من كتابة، وصناعة، وتجارة، وترميم، وما إلى ذلك. وبقي هذا العلم منحصرا في البعد التاريخي والفهرسي زمنا طويلا.

وتجلى ذلك عند العديد من العلماء المؤسسين للعلم، ، فـ"ألفونس دان" A. Dain مثلا يقدم تعريفا مختلفا لما هو معروف ومتداول عندنا اليوم، بيد أنه يشكل الإرهاصات الأولى لهذا العلم في صورته المنظمة. فهو يدخل في هذا العلم تاريخ المخطوطات، وتاريخ مجموعات المخطوطات، والبحث عن المواقع الحديثة للمخطوطات، ومشاكل الفهرسة، وسجلات الفهارس،

---

(1) معجم مصطلحات المخطوط العربي (قاموس كوديكولوجي) أحمد شوقي بنبين مصطفى طوبي، منشورات الخزانة الحسنية، الرباط، الطبعة الثالثة مزيدة ومنقحة: 2005 ص: 302.

(2) هي عملية الانتساخ والتصحيح والتسفير وسائر الشؤون المكتبية والدواوين بلغة ابن خلدون في المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان: 1413هـ 1993م ص: 334.

وتجارة المخطوطات واستعمالها إلخ[1]. ويستمر الأستاذ أحمد شوقي بنبين في هذه الصورة العلمية التي تحرص على إدخال عناصر مدعمة للعلم بمفهومه الصميم. فلم يفته في حديثه عن علم المخطوط العربي أن يتحدث على الهوامش النصية، والفهارس في فهم هذا العلم، إذ يعرفه بما يلي: "الكوديكولوجيا هي دراسة كل أثر لا يرتبط بالنص الأساسي، وبالتالي بحث العناصر المادية للمخطوط، وبعبارة أخرى هو علم يهدف إلى دراسة كل ما هو مكتوب في الهوامش من شروح وتصحيحات وما إلى ذلك من معلومات عن الأشخاص الذين تملكوه أو نسخوه أو قرأوه أو استعملوه أو وقفوه ثم الجهة التي آل إليها والمصدر الذي جاء منه ثم العناصر المادية المتعلقة بصناعة المخطوط من ترتيب، وتوريق، وترقيم، وغير ذلك، ثم تاريخ المجموعات ووضع القوائم والفهارس العلمية، والكشافات وفهارس الفهارس، وغيرها"[2].

أما الأستاذ قاسم السامرائي فيضيق ذرعا بالمثاقفة العمياء. ويفكر في علم صميم من صلب المخطوطات العربية. فيتملص من مفهوم "الكوديكولوجيا " ويقترح مصطلح "علم الاكتناه"، إلا أنه يعود إلى الثقافة الأجنبية، ويوسع هذا المجال العلمي ليبتلع علوما عديدة من مثل علم الخط العربي، والتحقيق العلمي، وعلم المخطوطات، والفهرسة، والتاريخ. ومع ذلك فهو يذهب إلى أن هذا العلم يشمل فنين في اللغات الأوروبية؛ أولهما باليوغرافي وهو الفن

(1) Les manuscrits, A. Dain, les Belles Lettres, Paris, troisième édition, 1975 p: 76-93.

(2) دراسات في علم المخطوطات. ص: 25

الذي يعنى بفك الخطوط القديمة، ورموز الكتابات الأثرية والنقوش والمسكوكات "وذلك بدراسة أشكال النقود، وتطور هذه الأشكال عبر القرون منذ أن كانت على شكل قضبان وحلقات ومن ثم سبائك معدنية مختومة إلى أن أصبحت نقودا بمعناها المعاصر؛ ومحاولة قراءة وجهها وظهرها وحل ما تحمله من رموز وأشكال. ومثل هذا التحليل يسري على الوثائق بصورها المختلفة"[1]، وثانيهما كوديكولوجي وهو علم دراسة الكتاب المخطوط وصناعته[2]، "بما في ذلك صناعة الأحبار، وفن التوريق أو النساخة، والتجليد، والتذهيب، وصناعة الرقوق، والجلود والكاغد، وما يتبع كل ذلك من فنون وما يتصل بها مثل: حجم الكراسة، ونظام الترقيم، والتعقيبات، والسماعات، والقراءات والإجازات، والمقابلات، وتقييدات التملك، وتقييدات الوقف، وما يظهر في نهاية المخطوط، وهو ما أسميه بتقييد الختام من اسم المؤلف، واسم الناسخ، ومكان النسخ، وتاريخ النسخ، وما إلى ذلك"[3].

ويذهب "ألبيرت دورلز" إلى أن علم المخطوطات هو، قبل كل شيء، مجال تاريخي "إن الكوديكولوجيا أو أركيولوجيا الكتاب المخطوط هي المجال التاريخي الذي يدرس الكتاب المخطوط بوصفه موضوعا ماديا أو بعبارة أحسن بوصفه وعاء للنصوص"[4].

---

(1) علم الاكتناه العربي الإسلامي. الرياض 1422 هـ- 2001م. ص: 19.

(2) علم الاكتناه العربي الإسلامي. الرياض 1422 هـ- 2001م. ص: 17 وما بعدها.

(3) علم الاكتناه، ص: 19 -20 .

(4) مقالات في علم المخطوطات ص: 81.

وأما "جاك لومير" فقد استوعب الصورة الأثرية لعلم المخطوطات فركز على الجانب المادي أو الصناعي في تعريفه لهذا العلم يقول: "فيجب أن يهتم هذا العلم في نظرنا بدراسة مختلف مظاهر الصناعة المادية الأولية للكراس قبل أن يهتم بأي شيء آخر"[1].

ويكون "جاك لومير" من هذا المنطلق مخلصا بشكل كبير للحفر المبني على الملاحظة، ونجد هذا التوجه الأركيولوجي الصميم حاضرا عند "ليون جلسان" في كتابه "تمهيد لعلم المخطوطات"[2] أكثر منه عند "جاك لومير". إذ إنه أخلص في كتابه المذكور إلى أركيولوجيا صناعة الكراريس. أما الباحث الخبير عبد الستار الحلوجي فهو يحاصر علم المخطوطات في ستة عناصر هي تاريخ المخطوط، والكيان المادي للمخطوط، وتقييم المخطوطات، ومعايير تقييمها التي قد تعتمد على التقاييد النصية الموجودة في النسخ، والحفظ والصيانة، وأساليب التعقيم والترميم والتصوير، والفهرسة والضبط الببليوغرافي، والتحقيق والنشر[3].

وهذه العناصر الستة، عنده، هي الركائز الأساسية المكونة لعلم المخطوطات يقول: "وفي تقديري أن علم المخطوط العربي يقوم على دعائم ست ويدخل تحت مظلته ستة موضوعات أو محاور أساسية"[4].

---

(1) "مدخل إلى علم المخطوط" ترجمة مصطفى طوبي، منشورات الخزانة الحسنية الرباط، 2006

(2) Prolégomènes à la codicologie ,Léon Gilissen, Editions scientifiques, story scientia S. P. R. L. Gand 1977

(3) نحو علم مخطوطات عربي ص: 16، 17

(4) نحو علم مخطوطات عربي. ص: 16

ويبدأ هذه العناصر بتاريخ المخطوط. ثم يتبعه بالاهتمام المادي للمخطوط. والتعامل مع المخطوط وفق هذا الأفق يشمل في نظره "الحديث عن المادة التي يكتب عليها، والأدوات التي يكتب بها من أقلام وأحبار"[1]، ثم يتبع ذلك بالحديث عن العنصر الثالث وهو تقييم المخطوطات "ويدخل في هذا الموضوع توثيق النسخ المخطوطة، ومظاهره المتعددة كالتملكات، والسماعات، والإجازات. فهذه الأنماط المختلفة تعد عناصر أساسية للحكم على صحة المخطوط وتقدير قيمته"[2]، والعنصر الرابع في هذا النسق العلمي هو الحفظ والصيانة وأساليب التعقيم والتصوير والترميم؛ وهي عند الأستاذ الحلوجي طرائق حماية المخطوطات، وتجنيبها عوامل البلى والفساد، أو كما يقول: "كيف نتيح هذه المخطوطات في أشكال يسهل التعامل معها والاستفادة منها دون أن يكون لذلك أي أثر سلبي على الأصول المخطوطة"[3]، أما العنصر الخامس فهو الفهرسة والضبط الببليوغرافي، "ويدخل تحت هذا الموضوع تقنينات فهرسة المخطوط، ومشكلات الفهرسة، وفهارس المخطوطات العربية في العالم، وأدوات حصر تلك المخطوطات"[4].

ويتحدث الحلوجي في العنصر السادس والأخير عن التحقيق والنشر؛ ويشمل هذا العنصر "بدايات التحقيق على أيدي علماء الحديث، ومناهج العلماء المحدثين من العرب والمستشرقين، وخطوات التحقيق ومراحله، والأدوات

---

(1) نحو علم مخطوطات عربي. ص: 16.

(2) نفسه. ص: 17.

(3) نفسه. ص: 17.

(4) نفسه. ص: 17.

التي يستعين بها المحقق على أداء عملية التحقيق"[1].

وهذه هي الصورة العامة لعلم المخطوطات عند الحلوجي وهي كما نرى تستوعب كل قضايا المخطوط العربي بدءا من تاريخه الذي يعتبر ضربة لازب لكل باحث في التراث وانتهاء بتحقيقه وإخراجه إلى القراء في الصورة النموذجية المتوخاة من السواد الأعظم من المهتمين.

ويستوعب هذا التصور لعلم المخطوط العربي فضاء واسعا يصح أن نطلق عليه ملحمة الكتاب العربي المخطوط، وهو مغر بشكله هذا ومثير للنقاش.

وهكذا تختلف مفاهيم هذا العلم بحسب المرجعيات الثقافية التي ينطلق منها هذا الباحث أو ذاك. وعلم المخطوطات، حسب ما سأظهره في هذا الفصل، إنما يعنى أساسا بالجوانب المادية في الكتاب المخطوط. أي أنه العلم الذي يتناول الكتاب المخطوط من حيث مكونات الورق أو المادة المكتوب فيها، والطي وصناعة الكراريس، والترتيب (أي مسألة كتابة النص في علاقته الزمنية بطي الفرخة أو صناعة الكراسة)، وتركيب الصفحات (أو دراسة التناسبات الممكنة بين درج أو أدراج النص وطرر الصفحة)[2]، والخزم، والتسطير، والنمنمة، والزخرفة، والتذهيب، والتسفير، أو التجليد بتعبير أهل المشرق.. وهو من جهة أخرى العلم الذي يعنى بالنساخة في المخطوط

(1) نفسه. ص: 17.

(2) عادة ما تكون الطرة الداخلية petit fond هي الطرة الصغرى ضمن طرر النص، تليها طرة الرأس، ثم الطرة الخارجية، وأخيرا طرة الذيل أو الطرة التحتانية بتعبير الرفاعي في كتابه: "حلية الكتاب. "

transcription بكل ما تحمله كلمة "نساخة"[1] من معنى، إذ إن هذا المصطلح يعني بداية النص، ونهاية النص، وحرد المتن[2]، والوقف، والإجازة، والقراءة، وقيد التملك، وقيد البيع، وقيد الشراء، والأدعية، والعبارات الشاردة، والفوائد، وقيود الصيانة، والسرلوحات أو الفضاءات الاستهلالية المزخرفة والمكتوبة، وعناوين الأبواب، وعناوين الفصول، وأنواع الترقيم، والحك، والمحو، والطلس، والإحالة، والتشطيب، وما إلى ذلك. إن علم المخطوطات هو ضرب من الحفر عن الكتاب المصنوع بطريقة تقليدية. وقد استوعب علماء المخطوط الحفر بطرق مختلفة، فهناك من توخى الانتقاء في هذا الباب، وتوسع في محور حفري واحد مثلما فعله "ليون جلسان" في كتابه "تمهيد لعلم المخطوط" Prolégomènes à la Codicologie[3]، إذ أفرد صناعة الكراريس كل جهده، وجعلها بؤرة الحفر عنده. وهناك من وسع نطاق الحفر، فجعله مستوعبا لمباحث أخرى غير صناعة الكراريس، مثل صناعة مادة الكتابة، والترتيب، وتركيب الصفحات، والتسفير، كما فعل "جاك لومير" في كتابه "مدخل إلى علم المخطوط" Introduction à la Codicologie[4]. وهناك من جعل الحفر محورا ثانويا في علم المخطوطات، وجعل هذا العلم بابا تابعا للتاريخ كما هو الأمر في كتاب "تاريخ الكتاب المخطوط؛ ثلاث محاولات

(1) يقصد بالنساخة في علم المخطوطات كل ما كتب في المخطوط وليس من النص بمفهومه الدقيق. ويقابله باللغة الفرنسية مصطلح: transcription .

(2) معجم مصطلحات المخطوط العربي. ص: 128

(3) GAND 1977 L. R. P. Gilissen léon , Prolégomènes à la codicologie, Editions scientifiques , story scientia S

(4) ترجمة مصطفى طوبي منشورات الخزانة الحسنية 2006م

في علم المخطوط الكمي"[1]، إذ أظهر صاحباه (بوزولو وأورنطو)، بما لا يدع مجالا للشك، أن هذا العلم غير مستقل. جاء في كتابهما ما يلي: "يتوضح بسهولة إذا اعتبرنا أن الكوديكولوجيا لم تظهر منذ أمد طويل إلا بوصفها ميدانا تابعا للتاريخ الأدبي، أو تاريخ الفن، أو تاريخ الكتابة. أما مهمتها الأساس التي لا يمكن نكرانها فهي المساعدة على تأريخ الزمن وضبط المكان لإرجاع بعض الكتب المخطوطة إلى مجموعاتها الأصلية القديمة"[2]. والحفر كما استوعبته، من خلال مباحث علم المخطوطات، ضربان؛ حفر تقني وحفر نسقي،. وهما متكاملان ومؤسسان أصلا على الملاحظة التي تعتبر أهم خطوة منهجية يجب أن يلجأ إليها عالم المخطوطات لروز الفرضيات التي ينطلق منها في بحثه. وسأحاول، في هذا البحث الوجيز، إضاءة مكونات هذين الضربين من الحفر اللذين يستوعبان مباحث علم المخطوط.

الحفريات التقنية[3] في علم المخطوطات:

يتضمن هذا المستوى عددا من المسائل المرتبطة بالجانب الأركيولوجي البحت، ويعتبر المخطوط في هذا الإطار قطعة حفرية صميمة شبيهة بالصفائح القديمة والأحجار الأثرية، والقطع النادرة، إذ يكون الأثري مهتما في المقام الأول بالصورة المادية للشيء، وربطها بالتاريخ والحضارة بمفهومها الواسع. وإنما سقنا هذا التشبيه ليكون عالم المخطوط مستعدا منهجيا للتعامل مع هذا الجانب وفق

(1) Pour une histoire du livre manuscrit – trois essais de Codicologie quantitative. Carla Bozzolo et Ezio Ornato CNRS ,Paris 1983

(2) المرجع السابق، ص: 125

(3) مقترح خاص صممته لاستيعاب مباحث علم المخطوط في مقدمة رسالتي لنيل دبلوم الدراسات العليا في الآداب، الرباط؛ 1997 م

رؤية مادية واضحة. ويكون من مسلمات هذا الاستعداد ما يلي:

- ندرة المخطوط ترتبط في جانب كبير منها بصورته المادية أو بأثريته.
- إمكانية رفد التاريخ مما قد تزودنا به هذه الأوعية في صورها الحفرية.
- نتائج الدراسة الحفرية للمخطوط منفتحة أمام مجموعة من المجالات الأخرى مثل التحقيق العلمي، والفهرسة، ونقد النصوص، والتاريخ.
- وفيما يلي بعض المسائل الحفرية التقنية والحفرية النسقية؛

I - الحفريات التقنية:

وهي المباحث التي ترتبط بصلب التغييرات المادية التي تطرأ على مادة الكتابة من جراء صناعة المخطوط ومنها المسائل الآتية:

مسألة صناعة مواد الكتابة:

إن أول سؤال يتبادر إلى ذهن الباحث هو الكيفية التي صنعت بها هذه المادة، فهو ينزع لا شك إلى محاولة الكشف عن المكونات الأولى التي تشكلت بها هذه الصحيفة، أو هذا الكراس، أو هذه اللفافة، أو وعاء آخر.

فقد كانت تصنع مادة البردي مثلا من خلال تقطيع سيقان شجرة البردي إلى شرائح رقيقة للغاية، وكانت تدق إلى بعضها بإضافة الماء إليها، ثم تعرض للشمس، وتصقل. وهناك أدبيات كثيرة أفاضت في الحديث عن صناعة هذه المادة-[1].

أما مادة الرق فهي تنحدر من أصل حيواني خلافا للبردي، فهي تؤخذ في التراث الغربي من أغلب جلود الحيوانات؛ من جلد الخروف، والماعز، والثور،

---

(1) في كتاب: Dictionnaire de la civilisation Egyptienne, Georges posener, ينظر مثلا مادة : papyrus.

والفرس، والحمار، والغزال، والخنزير، والثعبان، وحيوانات أخرى. أما عندنا في تراثنا الإسلامي، فنحن غالبا ما نتحدث عن رق الغزال، والخروف والماعز. وأود أن أشير هنا إلى أننا قد نريد برق الغزال في بعض الأحيان الرق الرفيع الجودة دون أن يكون بالضرورة مأخوذا من جلد الغزال.

والمادة الأخيرة التي نجد أغلب المخطوطات مصنوعة منها هي الورق، وهي مادة مصنوعة من الألياف. وتختلف نسبة السيلولوز فيها بحسب نوعية الألياف المكونة لها، إذ تكون الأقمشة أكثر غنى بالسيلولوز من الأخشاب، وهو الأمر الذي يفسر لنا تعرض مجموعة من المخطوطات للتآكل، وصمود مخطوطات أخرى متزامنة معها في الصنع.

ويمكن أن أقول، في هذا الباب، من خلال الملاحظة المباشرة للمخطوطات، ودون أن أعطي أرقاما بعينها لمخطوطات في هذه المكتبة أو تلك، إن حوالي 99% من إرثنا المخطوط هو عبارة عن مخطوطات ورقية[1]. وفي المقابل هناك عدد قليل جدا من المخطوطات الرقية هي ما تبقى في الخزائن العامة، مثل المخطوط خ، ح، 12610 وهو قطعة من المصحف الشريف مكتوبة بالخط الكوفي القديم، والمخطوط رقم 231 بخزانة الجامع الكبير بمكناس، وهو أيضا قطعة من المصحف الشريف، والجزء الخامس من كتاب العبر لابن خلدون الموجود بخزانة القرويين، وسنذكره في باب الوقف. ولعل هذه المواد هي التي تعطينا المشروعية في الحديث عن المخطوط، وإلا فإن

(1) هذا التقدير انتهيت إليه بعد معاينتي لأوعية المخطوطات في كل من المكتبات الآتية: المكتبة الوطنية بالرباط، و المكتبة الحسنية بالرباط، و مكتبة القرويين بفاس، والمكتبة الصبيحية بسلا، ومكتبة ابن يوسف بمراكش، ومكتبة الجامع الكبير بمكناس.

النقوش الماثلة في الأحجار والأخشاب والمعادن يجب أن تدخل هي بدورها في إطار المخطوط.

مسألة الطي وصناعة الملازم:

نعرف أن المخطوط كان في بداية صنعه عبارة عن مجموعة من الفرخات التي تطوى هي بدورها عددا من الطيات لصنع كراريس الكتاب، وتشد مجموع الكراريس إلى الغلاف بواسطة البرشمان[1]، والنشا. ويمكن تحديد حجم الكتاب بحسب عدد الطيات التي نصنعها للفرخة الأولية. وكلما كان عدد الطيات كثيرا كان حجم الكتاب صغيرا، والعكس صحيح. وتعتبر هذه المسألة من المسائل الحفرية الصميمة، فقد كتب عنها الغربيون كتبا متخصصة[2]، ووصلوا إلى نتائج مقنعة، من مثل تأكيد قانون "غريغوري" في صحائف الكراريس.

أما في تراثنا الإسلامي فما زلنا في حاجة إلى دراسة متأنية في هذا الباب، فرغم صدور بعض الأبحاث في علم المخطوطات العربية في السنوات الأخيرة، فإننا نلاحظ أنها جميعها منصبة على النساخة، اللهم إلا بعض الملاحظات التي أثارها "فرانسوا ديروش"، والمرتبطة بمخطوطات الشرق العربي، والتي يقوض فيها نظرية "غريغوري"، ويقول: إن هذا التراث غير

---

(1) مدرجة أو نوع من الأشرطة التي تمتن كراسات المخطوط من الرأس والذيل، ينظر: معجم مصطلحات المخطوط. ص: 57

(2) أفرد "ليون جلسان" Léon Gilissen كتابه 1977 " Gand Prolégomènes à la codicologie" بالحديث عن الطي وصناعة الكراريس.

متجانس مع التراث الغربي في الرضوخ للقاعدة نفسها[1].

ولاحظت شخصيا هيمنة الخماسيات على الكراسات في مخطوطات الخزانة العامة بالرباط(الخزانة الوطنية حاليا)، كما لاحظت ذلك في الخزانة الحسنية بالرباط، ويظهر أن بعض المخطوطات بقيت مفككة أو تعرضت للتفكك بالشكل الذي تظهر فيه نوعية الكراسات الموجودة فيها بادية للعيان، كما هو الأمر في المخطوط خ. ح (= الخزانة الحسنية) رقم 13261. فالمخطوط يتكون من 42 كراسة خماسية مفككة ولا أثر للتلاحم بينها.

مسألة ترتيب الصفحات وخرمها:

حين نمسك الكتاب المخطوط، ونبدأ في تصفحه، فإننا نتساءل عن اللحظة التي قطعت فيها فرخاته[2] المشكلة للكراسات. نحن في ثقافتنا العربية نسمع عن الوراقة، ومنها التوريق بالشكل الذي حدثنا به ابن خلدون: "وجاءت صناعة الوراقين المعانين للانتساخ، والتصحيح، والتجليد، وسائر الأمور المكتبية والدواوين"[3]، ولكننا لا نعرف شيئا، ولم يحدثنا أحد، عن اللحظة التي كتب فيها النص، هل حصل ذلك قبل طي الفرخة في شكل كراسة، وتقطيعها من حروفها المتماسكة أم بعد ذلك؟، أم أن الكتابة كانت تسير متوازية مع الطي؟، أم أن كل وراق كان يصنع بنصه ما يشاء؟

الأمر الذي يمكن أن نقوله بإيجاز، في هذا الصدد، هو أن هناك عددا من

---

(1) Catalogue des manuscrits arabes Paris 1983, article (The codicology of the islamic manuscrits p-29).

(2) ج: فرخة وهي الورقة الكاملة قبل الطي " معجم مصطلحات المخطوط العرب. " أحمد شوقي بنبين مصطفى طوبي، منشورات الخزانة الحسنية، الطبعة الثالثة: 2005 ص: 262

(3) ابن خلدون، المقدمة، القاهرة، 1957، ص: 268.

المخطوطات التي فحصتها بفضول معرفي، أو ضمن تجربتي في الفهرسة[1]، مازالت آثار التماسك بادية عليها في أطراف كراريسها، الأمر الذي يظهر أنها لم تقطع إلا بعد أن طويت في شكل كراسات. إن البحث عن التدرج الزمني لمجموعة من العمليات الداخلة في صنعة الوراقة، هو ما يسمى حفريا "بالترتيب"[2]، Imposition وهو مجال مازال بكرا، ويستأهل أبحاثا مستقلة. أما ما يتعلق بالخزم، فيمكن القول عموما: إن الثقوب أو الخزم هي آثار حفرية حاضرة في المخطوطات، وإن بشكل خفي لا يكاد يظهر. إنها أصواء ذات طابع تقني[3] استعملت أيضا في صناعة المخطوط العربي الإسلامي، واستعملت لأغراض متنوعة من مثل تركيب الصفحات، والتسفير، وتوجيه الكتابة، وأمور أخرى يمكن أن نؤكدها بإمعان النظر في مخطوطات تراثية.

مسألة التسطير وتركيب الصفحات:

لا نكاد نجد ضمن تراثنا المخطوط، مخطوطات مسطرة بالمداد. والملاحظة الأولية لهذه المخطوطات تعطينا الانطباع بأنها لم تسطر أبدا، والحال أنها مسطرة، وأن إنعام النظر فيها بالمجهر أو بالعين المجردة يظهر أنها مسطرة

(1) اشتراك في فهرسة مخطوطات النحو والصرف واللغة بالخزانة الحسنية بالرباط، وعددها يفوق 1200 مخطوط.

(2) معجم مصطلحات المخطوط العربي. ص: 79.

(3) أفرد "جاك لومير" للخزم فصلا خاصا ضمن كتابه "مدخل إلى علم المخطوط "، ترجمة مصطفى طوبي، منشورات الخزانة الحسنية 2006م ص: 165- 185. تحدث في هذا الفصل عن مفهوم الخزم، وأنواع الخزم، وإنجاز الخزم، وغياب الخزم. ومن ضمن أنواع الخزم التي عالجها المؤلف خزم التجليد، وخزم صناعة الملزمة، وخزم التسطير، وخزم تركيب الصفحات.

بالمنحت. ولم يستعمل الوراقون المسلمون المنحت بالشكل الذي عرف عند الغربيين، وإنما استعملوا المسطرة؛ وهي (آلة من خشب مستقيمة الجنبين يسطر عليها ما يحتاج إلى تسطير من كتابة ومتعلقاتها وأكثر من يحتاج إليها المذهب)[1]. وهذه المسطرة تكون مصنوعة بشكل يحترم تركيب الصفحات، فنحن نلاحظ أن العديد من المخطوطات قد احترمت فيها المساحة المكتوبة La justification بشكل لافت للنظر، فيكون مقاس الطرة السفلى هو الأكبر حجما، والطرة اليمنى هو الأصغر حجما دائما، ويحصل هذا الأمر بشكل مطرد، ولا نستغرب هذا الأمر إذا ألفينا أن مقاسات المسطرة بمعناها الدقيق تكون دائما مطابقة لهذه الأبعاد. يقول محمد المنوني رحمه الله: (ومن أدوات الكتابة المسطرة. وينبغي أن تكون على زوايا قائمة ذات امتدادين طولا وعرضا، وجعل سعة الطرة اليمنى من جزء والفوقانية من جزئين، واليسرى من ثلاثة أجزاء، والسفلى من أربعة)[2]، وهكذا إذن، فإن هذه الآلة التي كانت مستعملة في التسطير كانت تعفي الوراقين من تدبير القياسات الهندسية لتركيب الصفحات، وهو الأمر الذي انعكس إيجابيا على تركيب الصفحات في مخطوطات التراث العربي الإسلامي. ومما نلاحظه بهذا الصدد أيضا ورود درج واحد للكتابة في جل مكتوبات هذا التراث، إذ لا نكاد نعثر على المخطوطات ذات الدرجين والثلاثة أدراج أو أكثر في المكتبات المغربية إلا لماما.

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، القاهرة 1414 هـ 2/ 482.

(2) المخطوط العربي وعلم المخطوطات، الرباط، 1994م ص: 59.

مسألة التسفير:

يستعمل أهل المشرق مصطلح "التجليد" ونستعمل نحن في المغرب مصطلح "التسفير"، ونحن نريد من التسفير بعده الحفري، أما الجانب التاريخي فهو يشكل خطوة أولى غير مقصودة لذاتها. والتسفير يشكل ركنا أساسا في التقنيات المادية لصناعة المخطوط طالما أنه يبحث عن كيفية صناعة الدفف الواقية للمخطوط، وطريقة تغشيتها بالجلدة، وشد الكراريس في المكبس، وخياطة الكراريس من جهة القفا، وصناعة البرشمان، وطريقة التغرية الخ. ولا يخلو تراثنا من كتب هامة جدا في هذا الباب[1].

والملاحظ على كم المخطوطات الذي عاينته في بعض المكتبات أن التسفير فيها إما يكون أصيلا أو دخيلا. وفي بعض الأحيان نجد القفا، والأركان، تستعمل جلدة زائدة لتقوية التسفير الأصلي، كما قد يضاف ما يشبه الخياطة البرشمانية في ظهور الكراريس[2]. ويتميز التسفير المغربي باللسان ويسميه البعض بالمرجع الأكبر، وهو امتداد للدفة اليسرى في الغلاف، وقد يقطع هذا اللسان أو يبتر، فيتم إرجاعه إلى مكانه بالخياطة[3].

كما يتميز التسفير المغربي بالترنجة، وهي عبارة عن وحدة زخرفية على شكل لوزة، وتكون في بعض الأحيان بنية اللون ترشم في وسط جلدة الدفة

---

(1) توجد في تراثنا مجموعة من الكتب المصنفة أصلا في تقنية التسفير مثل كتاب: "التيسير في صناعة التسفير" للإشبيلي، وكتاب: "صناعة تسفير الكتب وحل الذهب" لأبي العباس أحمد بن محمد السفياني.

(2) ينظر على سبيل المثال المخطوط خ. ح 13095. إذ توجد على قفاه جلدة رقيقة حمراء استعملت لتقوية القفا.

(3) ينظر المخطوط خ. ح. 13209، حيث اللسان مخاط إلى الدفة اليسرى بخيط ظاهر.

اليسرى واليمنى على حد سواء، وتكون في غالب الأحيان موصولة إلى الأعلى والأسفل بخط مرشوم في جلدة الغلاف، والغلاف مؤطر بإطار مرشوم أو بعدة إطارات متراكبة مرشومة تتوسطها ضفائر زخرفية مرشومة[1].

إن الوقوف بهذه المميزات المادية في المخطوطات هو ما من شأنه أن يعمق جانب الحفر، ويعطينا معلومات جوهرية تسهم إلى جانب المسائل الأخرى في تيسير تأريخ المخطوطات، وضبط أمكنتها.

II- الحفريات النسقية في علم المخطوطات:

يمكن القول، إجمالا، إن النساخة تشكل محور هذه الحفريات، فما هي إذن النساخة؟

النساخة:

تعتبر النساخة الشق الثاني للحفريات في علم المخطوطات، وقد اعتبرتها شخصيا نوعا من الحفر النسقي[2]. والمقصود بالنساخة ليس هو الفهم التراثي الأولي لها الذي ينصرف إلى الكتابة والتدوين، وإنما هي مقابل للكلمة transcription بالفرنسية، والمقصود بها كل ما يرتبط ويحف بالمتن المكتوب وليس منه، أي كل المعطيات النصية الموجودة في الوعاء المدروس، والتي لا تنتمي إلى المكتوب بمعناه الدقيق.

وقد انصرف بعض المتعاطين لعلم المخطوطات إلى دراسة مجموعة من المعطيات الخارجة-نصية مما يمكن أن ندرجها نحن في النساخة توهما منهم أن

---

(1) تنظر الترنجة في المخطوط خ. ح، 12352 (م) بالرباط.

(2) تنظر رسالتي لنيل دبلوم الدراسات العليا – "مدخل إلى علم المخطوطات" "لجاك لومير" ترجمة وتقديم في الكوديكولوجيا، الرباط – 1997م

ذلك هو العلم[1]، والحق أن علم المخطوطات أوسع من أن يحصر في إطار نساخي بحت. ومع ذلك فالنساخة هامة جدا أولا في كمال العلم، وثانيا في تبين معطيات حضارية كثيرة تزامنت مع المخطوط وانصرفت همم حملة الأقلام عن تدوينها أو شح التاريخ بهؤلاء الحملة.

فنحن نهتم ضمن هذا المستوى ببداية النص الذي يأتي مباشرة بعد البسملة والحمدلة؛ والاستغفار، وذكر الكاتب إن أمكن، ونهاية النص؛ وهو القول الأخير قبل حرد المتن، ويمكن أن يختلط هذان الأمران على الباحث، لذلك يجب أن ينعم النظر، ويتريث لكي يفرق بينهما، جاء في كتاب "تعليق على عقيدة الرسالة القيروانية"[2] لمحمد بن قاسم بن محمد جسوس، على وجه آخر ورقة ما يلي: "قال مقيده محمد بن قاسم جسوس عفا الله عنه هذا آخر ما قصدت جمعه (..)" ثم جاء: "ووافق الفراغ من تبييضه عشية الثالث عشر من ربيع الأول من سنة 1125 هـ (..) انتهى والحمد لله رب العالمين (..)". ثم جاء " قال ناسخه سامحه الله بفضله أحمد بن الحاج المكي السدراتي السلاوي وكان له وليا ونصيرا قد وافق الفراغ من انتساخه صبيحة جمعة ثاني رمضان المعظم من سنة 1213هـ رزقنا الله خيره، ووقانا بمنه وكرمه ضيره". واضح إذن أن حرد المتن يبدأ من اللحظة التي تم الانتهاء فيها من الحديث عن شروط التأليف الحقيقية، وتم الشروع في الحديث عن النساخة. ويكون حرد المتن في غالب الأحيان على شكل مثلث كما هو الأمر في النسخة رقم 5402 من دلائل الخيرات الموجودة في الخزانة الحسنية بالرباط، إذ كتبت العبارة الآتية في شكل

(1) ينظر فؤاد أيمن سيد، الكتاب العربي وعلم المخطوطات، القاهرة 1997م.
(2) م.خ.ح، 3385.

مثلث "كمل دلائل الخيرات بحمد الله وحسن عونه وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم في ثاني عشر محرم الحرام فاتح عام أربعة وثمانين ومائتين وألف"، وقد يكسر هذا التقليد كما هو الأمر في حرد متن كتاب "تعليق القلائد على فوائد القواعد"[1] لعبد الرؤوف بن يحيى بن محمد بن قاسم المكي، كما نشير إلى أن حرد المتن في بعض الأحيان قد يوضع في فضاءات مزخرفة ومعربسة، وقد يكتب بخطوط أثرية جميلة كالخط الكوفي المورق. ويودع في هذا القيد تاريخ الفراغ من النساخة، واسم الناسخ، والتصلية، والتسليم على الرسول ﷺ.

ويتم الاهتمام ضمن النساخة أيضا بالتملكات؛ وهي قيود تظهر انتماء المخطوط إلى شخص بعينه، أو إلى سلسلة مالكين متتابعين، ويضبط تاريخ التملك ومكان التملك كما هو الأمر في نسخة من[2] ديوان حسام الدين عيسى بن سنجر بن بهرام ابن جبريل الأربيلي، حيث قيد فيها قيد التملك هكذا: "تملكها كاتبها محمد بن مهدي يعقوب من محروسة فاس بتاريخ أواخر شهر شوال من عام 1108هـ". ويدون التملك في غالب الأحيان في الصفحة الأولى، وقد يحصل تملك عن تملك كما هو الأمر في مجموع فيه شرح محصل المقاصد[3] جاء في الصحيفة الأولى منه "تملكه عبيد ربه الراجي عفوه وغفرانه (..) ابن سيدنا لطف الله به (..) ثم تملكه عبيد ربه (..) عامله الله بفضله (..) ثم تملكه عبد ربه البشير بن عبد الحي البربومي بالشراء من مراكش في عدة

(1) م.خ.ح، 13536.
(2) مخطوط خ.ح، 2313.
(3) مخطوط خ.ح، 11609.

كتب مجملة"، ويكون في بعض الأحيان اسم المتملك مشطبا عليه، كما هو الأمر هنا بإزاء المتملك، الأول والأوسط. ولا نعلم من شطب على هذه الأسماء أهو المتملك الأخير أم الناسخ؟

وقد يكون قيد التملك عبارة موجزة، كما هو في نسخه من كتاب "فتح الجليل الصمد في شرحه التكميل والمعتمد"[1] لابن أبي القاسم بن محمد بن عبد الجليل الفلالي، حيث كتب في وجه الصحيفة الأولى منه "ملك للحاج الطالب".

ومن معطيات النساخة أيضا المقابلة، وهو قيد يفيد أن النسخة المعينة قد قوبلت على نسخة أخرى، أوثق منها كتلك التي كتبها المؤلف مثلا[2]. ويكون قيد المقابلة غالبا في آخر صفحة، ويذكر معه الأصل الذي قوبل معه، فقد جاء في آخر صفحة من نسخة من "تعليق القلائد" ما يلي: "بلغت المقابلة مع الأصل المكتوب منه وهو خط مشرقي، ثم بلغت أخرى مع أصل نسخ منه، الحمد لله حق حمده"، وفي بعض الأحيان يذكر اسم ناسخ النسخة التي قوبل معها، كما في المخطوط خ. ح، 13434 (مجموع)، فقد جاء في نهاية الكتاب الأول "بلغت المقابلة بحمد الله من نسخة شيخنا سيدي أحمد القدومي".

ومن النساخة أيضا الوقف، فكثيرة هي المخطوطات التي مازالت تحمل قيود الوقف من مثل الوقف الخلدوني المشهور الذي مازال موجودا إلى الآن في

---

(1) ينظر على سبيل المثال: النسخة خ. ح، 10905/ مجموع الكتاب من 53 ب إلى 128أ، إذ كتب في ص 128 أ "نسخة مقابلة جهد الاستطاعة من تلك النسخة التي كتبت بخط مؤلفه".

(2) مخطوط خ. ح، 13536.

الجزء الخامس من كتاب العبر في خزانة القرويين بفاس، وقد درس الدكتور أحمد شوقي بنبين هذا الوقف بشكل دقيق ومفيد[1]، حيث بين أن هناك مجموعة من العناصر ضرورية في الوقفية مثل اسم الواقف، وصيغة الوقف، إضافة إلى عناصر أخرى من مثل الكتاب الموقوف، والجهة الموقوف عليها، وشروط الوقف، والإشهاد. ونجد الوقفيات في المخطوطات المغربية تحترم إلى حد بعيد هذه المعطيات وقد تضيف إليها أشياء أخرى. ففي المخطوط خ. ح، 5394 الذي هو شرح للمفضليات لأبي بكر محمد بن القاسم بن محمد الأنباري (ت. 328هـ)، ذكر الواقف أحمد طوسون باشا بحضور الناظر السيد حسن أوليا بن مصطفى أوليا. والوقف يعطينا معلومات قيمة عن قيمة المخطوط، وعن مكانه، وزمانه، ومعطيات حضارية أخرى جديرة بأن ننتبه إليها.

إننا لن نستطيع أن نحدد هذه التقييدات الكثيرة التي تطفح بها المخطوطات، فتارة نجد أن مالك المخطوط يدون شيئا يظهر فيه مقته لإعارة وهجومه عليها، كما جاء في نهاية المخطوط خ. ح، 12925 " الحمد لله وحده:

ألا يا مستعير الكتب دعني فإن إعارتي للكتب عار
فمحبوبي من الدنيا كتاب فهل أبصرت محبوبا يعار"

أو يشترط شرطا مثل الرهن أو القسم:

"إني حلفت يمينا غير كاذبة ألا أعير كتابي الدهر إنسانا
إلا برهن وإيمان مؤكدة كي لا يضيع كتابي حيثما كانا"

---

(1) أحمد شوقي بنبين، دراسات في علم المخطوطات والبحث البيليوغرافي، ط 2، 2004م ص 118 وما بعدها.

وقد ذكرنا سابقا ما فعله ابن خلدون رحمه الله في كتابه: "العبر" من تحبيس لنسخة منه على مكتبة القرويين بفاس وكتب في هذا التحبيس ما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه.

وقف وحبس وأبد وحرم وتصدق سيدنا ومولانا العبد الفقير إلى الله تعالى الشيخ الإمام العالم العلامة الحافظ المحقق أوحد عصره وفريد دهره قاضي القضاة ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن الشيخ الإمام أبي عبد الله محمد بن خلدون. وهو مؤلف هذا الكتاب، جميع هذا الكتاب المسمى بكتاب العبر في أخبار العرب والعجم والبربر، المشتمل على سبعة أسفار هذا أوحدها وقفا مرعيا وحبسا مرضيا على طلبة العلم الشريف بمدينة فاس المحروسة. وجعل مقره بخزانة الكتب التي بجامع القرويين. بحيث لا يخرج حرمها إلا لثقة أمين، برهن وثيق لحفظ صحته، وألا يمكث عند مستعيره أكثر من شهرين وهي المدة التي تتسع لنسخ الكتاب المستعار أو مطالعته ثم يعاد إلى موضعه[1].

وتارة يودع مالك المخطوط كتابه فوائد يراها قمينة بأن تكتب عليه، ومن ذلك ما جاء في المخطوط خ. ح، 12189 في ظهر آخر صحيفة بعد حرد المتن: "ذنب الأرنب إذا علقته المرأة لم تحمل مادام عليها ودماغه بالعكس، ومن أراد حمل زوجته ذكرا، فيضع يده على بطنها، وليقل إن كان هذا الحمل ذكرا فقد سميته محمد، فإنه يكون بإذن الله وكذا من نوى أن يسميه محمد فإنه يحوله الله ذكرا وإن كان أنثى". والكتاب أصلا في التوحيد بيد أن هذا التقييد يجلو لنا

(1) درس هذه الوقفية الأستاذ أحمد شوقي بنبين في كتابه: دراسات في علم المخطوطات والبحث الببليوغرافي. ص: 116- 133

مجموعة من المعطيات الفكرية المرتبطة بحضارة المخطوط. ومثل هذا التقييد ما جاء في المخطوط خ. ح، 13429 في الصحيفة 3 أ، "إذا سرق شيء تكتب هذه الأسماء في يدك عند النوم، وتضع يدك تحت رأسك، فإنك ترى متاعك عند من كان، وهذا ما تكتب في يدك".

إن هذه "الفوائد" بحسب ما يسمونها في ثقافة المخطوطات تسهم في رفد فضاء تاريخي مسكوت عنه مرتبط أشد ما يكون الارتباط بتاريخ الثقافة.

وهي، من جهة أخرى، تندرج في إطار المعطيات النساخية الخارجة عن النص بمفهومه الدقيق. ومن ذلك أيضا تقييد الصيانة: "ياكيكتج" ويطلق عليه المشارقة "كبيكج" وهو، حسب معتقد القدامى، كائن خفي أو نوع من الجن، كان الناس يعتقدون أن التوسل به يحمي الكتاب من الأرضة، والتسوس، والحشرات، وكانت تكسى به الورقة الأولى وظهر آخر صحيفة كما هو الأمر في المخطوط خ. ح، 13305 وتارة يكتب "يكيكتيج"[1]، وقد يتجاوز الناسخ أو المالك الكلمة في ذاتها إلى الإفصاح عن رغبته في مناداته "ياكيكتج " كما هو الأمر في المخطوط خ. ح، 12894، إذا كتب في باطن الدفة الأولى وفي وجه ورقة الوقاية، وفي بطن الدفة الأخيرة ما يلي: "يا كيكتج لح لمح لا تأكل هذا الكتاب بحق من كلم الله العزيز، وما فيه من الآيات والذكر الحكيم، يا رب"[2]. وكذلك الأمر بالنسبة للمخطوط خ. ح، 13374 إذا كتب في ظهر الصحيفة 10 ما يلي: "يكيكتج لا تودي كتابي هذا"، إن "كيكتج" إذن هو اسم كائن خفي مسؤول عن كل ما من شأنه أن يتلف المخطوطات، ويعرضها

(1) انظر المخطوط خ. ح، 13423

(2) لعبارة نفسها وجدتها في المخطوط خ. ح، 13483 بزيادة البسملة والتصلية في مطلعها.

للتآكل والضياع.

وهناك ضرب آخر من التقييدات في النساخة تسمى التقييدات التقنية، ويتعلق الأمر هنا مثلا بأنظمة الترقيم؛ فلا شك أن المتصفح للمخطوط العربي والمغربي بوجه خاص سيلاحظ افتقاد هذا المخطوط للأرقام المألوفة أو الأعداد، وإنما هو مرتب وفق نظام التعقيبة، أو الرقاص، أو الوصلة؛ وهو نظام من الترقيم يركز على كتابة آخر كلمة في الصفحة السابقة في مطلع الصفحة الموالية. وتكون التعقيبة إما مائلة وهي الحالة الأكثر ورودا[1] في المخطوطات، أو أفقية[2] في الطرف الخارجي من الطرة السفلى. ويستأثر شكل التعقيبة بدراسات وافية في بعض الأدبيات المتخصصة[3]. وقد يفتقد المخطوط إلى التعقيبة إما لتآكل الطرة السفلى وتلاشي الطرف الذي كتبت فيه التعقيبة، أو أن الناسخ لم يضعها منذ البداية واعتمد تعقيبة الكراريس، ومن أمثلة المخطوطات التي غابت فيها التعقيبة بفعل الخروم أذكر المخطوط خ. ح، 7668 والمخطوط خ. ح، 8869 والمخطوط خ. ح، 7539. وقد تغيب التعقيبة لأسباب أخرى نجهلها كما هو الأمر في المخطوط خ. ح، 12319 والمخطوط خ. ح، 7500 والمخطوط خ. ح، 8657.

---

(1) تنظر مثلا المخطوطات خ. ح، 2557-5340-6322-8047-8229-8582-8755-9033-10105-244-544-4976-6111.

(2) تنظر مثلا المخطوطات خ. ح، 7391 – 11905-2522-13561 (..).

(3) ينظر باب: Formes des réclames ضمن كتاب: Scribes et manuscrits du Moyen – Orient, sous la direction de François Déroche et Francis Richard ,Bibliothèque nationale de France, Paris, 1997,p: 67

وعموما فالمخطوطات تكون مزودة بالتعقيبة وهي تقريبا الوسيلة الوحيدة التي كان يمتلكها أجدادنا لترتيب مكتوباتهم.

أما الخط أو الكتابة، فنحن إنما ندرس منه في النساخة الجانب المادي البحت، وأقصد به شكله أو الخصوصيات الشكلية للحروف كالتمدد، والانبطاح، والرقة، والثخانة، ونحو ذلك، أي أننا لا ندرس الخط في صوره الجمالية، وإنما ندرسه أساسا في بعده المهني، بمراعاة مادة الكتابة، ونفسية الناسخ أو الناسخين الذين نسخوا هذا السفر أو ذاك. وبالطبع فإن أي خط له خصوصيات في ذاته، ولكنه مع ذلك يظهر خصائص مرتبطة بالنساخة بمفهومها الدقيق. إن تراثنا المخطوط في المغرب قد كتب في أغلبه بالخط المغربي، ويتأرجح بين الجودة[1] والرداءة[2] وهناك مستوى معتدل في تحسين الخط وتنميقه[3]. وبالطبع، فإن هناك خطوطا أخرى في هذا التراث من مثل الخط الكوفي، والخط الأندلسي، والخط النسخي، إلخ.

فالخط الكوفي نادر جدا، ويتعلق الأمر بكتابات قديمة تعود إلى القرن الأول الهجري أو مطلع القرن الثاني الهجري[4]، والخط الأندلسي يعكس التراث الأندلسي الذي انتهى إلى المغرب، ومن المخطوطات المكتوبة بهذا الخط

---

(1) ينظر على سبيل المثال المخطوطات خ. و، الرباط أرقام: D 1632، D1230، 185 ق- 209 ق- 211 ق- 83 ق- 245 ق.

(2) ينظر على سبيل المثال المخطوطات خ. و، الرباط أرقام: D 283، D 1351، D 1531، D 1177، 83 ق.

(3) تنظر على سبيل المثال المخطوطات خ. و. الرباط أرقام: D1066، D579، D1254، D 1394، D 1066، 198ق، 165ق، 91ق.

(4) ينظر مثلا المخطوط خ. ح، رقم: 12610.

في المغرب المخطوط خ. و. الرباط (رقم: 197 ق)، وهو كتاب " الدلائل على معاني الحديث بالشاهد والمثل" تأليف أبي محمد قاسم بن ثابت السرقسطي، والمخطوط خ. و. الرباط (60 ق)، وهو كتاب "الاستنكار لمذاهب علماء الأمصار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار"لأبي عمر يوسف بن عبد الله ابن عاصم النمري الأندلسي (ت 463 هـ)، والمخطوط خ. و، الرباط (144 ق)، وهو كتاب "التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد" وهو للمؤلف نفسه المذكور آنفا، والمخطوط الموجود بخزانة المسجد الأعظم بتازة تحت)رقم: 395)، وهو السفر الثالث من الموطأ برواية يحيى بن يحيى. وغير هذه المخطوطات كثير في جميع خزائن المغرب يضيق المجال عن ذكرها. أما المخطوطات المكتوبة بخط مشرقي[1] فلا نعدم لها أمثلة في كل الخزائن المغربية، إذ إننا نجد نماذج من هذه المخطوطات حتى في المكتبات الجنوبية النائية، كما هو الأمر بالنسبة لمخطوط: "فتح القيوم بشرح روضة الفهوم" لشهاب الدين أحمد بن أحمد السنباطي، الموجود بالخزانة الأزاريفية بسوس، والمنتسخ بخط مشرقي في 20 رجب 1012 هـ، ومخطوط "فتح الرحمان بكشف ما يلتبس في القرآن" لأبي يحيى زكريا الأنصاري الشافعي، الموجود بالخزانة العثمانية بسوس أيضا، والمخطوط رقم 514، الموجود بخزانة الجامع الكبير بمكناس والذي عنوانه: "صلاح الأرواح والطريق إلى دار الفلاح"، لعبد الرحمن بن عبد السلام الصفوري.

---

(1) ينظر على سبيل المثال المخطوطات الآتية: خ. و، الرباط: 202ق – 183ق- 57ق- 181 ق- 121 ق- 708 D-. خ. ح، الرباط: 12299-2313-12396.

بالإضافة إلى مشروعية الاهتمام بالأمور المذكورة في هذه الخطوط التي أتقنها النساخ لتدوين تراثنا، فإن النساخة تنص أيضا على الاهتمام بعلاقة هذه الخطوط بمجموعة من الطوارئ التي تلحق مادة الكتابة من مثل التحدبات، والتآكلات، والشطب، والمحو، والطلوس، والإحالات، والتخريجات، والثقوب، وما إلى ذلك. والنساخ لم يكونوا ليغفلوا أنفسهم من هذا الكم من المعطيات التي تدرس في إطار النساخة، بل كانوا يفرزون لأنفسهم تقاييد يسجلون فيها دعوات لهم بالخير والثواب، وحث القارئ الناظر إلى خطهم ليدعو لهم بالدعوات الصالحة. فكثيرا ما كانوا يوردون بعد حرد المتن هذه الأبيات[1]:

يا ناظر الخط بالعينين تبصره ... لا تنس كاتبه بالخير تذكره

وهب له دعوة لله مخلصة ... لعله في موقف الحشر تنفعه

الخط يبقى زمانا بعد كاتبه ... وصاحب الخط تحت الأرض دافنه.

أو قوله:

يا ناظر الخط قل بالله مجتهدا ... اغفر لكاتبه يا خير من عبدا

وكتب أحد النساخ في آخر المخطوط خ. ح، 12189 ما يلي:

كتبت وقد أيقنت لاشك أنني ... ستفنى يدي ويبقى كتابها

ولاشك أن الله سائلها غدا ... فيا ليت شعري ما يكون جوابها

فإما نعيم في الجنان وراحة ... وإما جحيم لا يطاق عذابها

(1) انظر آخر صحيفة من المخطوط خ. ح، الرباط 13483، والمخطوط خ. ح، 13561.

وهذه التقاييد تظهر أن الوازع الديني كان حاضرا بشكل كبير في هذه المهنة، مما قد يفسر لنا الإخلاص في الإبقاء على النص بشكله الأصلي، وكتابة الأمور الخاصة في الطرر، أو في الصفحات الأولى الفارغة، أو في ما بقي فارغا في الأخير أو في بطون دفف الأغلفة.

هذه، في إيجاز شديد، بعض المعطيات المقتضبة المرتبطة بمجموعة من الأبواب التي رأيتها ناسجة درس علم المخطوطات، ولم أقل فيها بالشكل الذي يجب أن يحصل لأن ذلك يعني تجزيء كل هذه المباحث المذكورة إلى أبحاث خاصة، وهو ما يجب أن يحصل أصلا في علم المخطوط. وأنا هنا مرتبط بما يقتضيه البحث الوجيز، وحسبي أنني أوضحت، إلى حد ما، المنهج الذي يجب أن نسلكه ونحن نبحث في إطار هذا العلم. إنني ميال إلى الملاحظة والتعامل المباشر مع المخطوطات، لصقل رؤية خاصة بالمخطوطات المغربية والعربية الإسلامية بوجه عام.

مخطوطات القدس الشريف في الخزائن المغربية

من أجل دراسة كوديكولوجية

مخطوطات القدس الشريف في الخزائن المغربية
من أجل دراسة كوديكولوجية

يمكن القول، بدءا، إن نصيب بلدان المغرب قليل من هذا التراث المقدسي، إذا ما قيس بما يوجد في البلدان القريبة من القدس، لأن الرحلة إلى هذا البلد الشريف كانت ميسرة لكل العلماء المتاخمين للقدس الشريف على خلاف البلدان البعيدة. ومازالت الخزائن المشرقية تعج بنوادر الأسفار المخصوصة بهذا البلد العظيم، من مثل نسخ كتاب" الخمرة المحسية في الرحلة المقدسية" لأبي المواهب قطب الدين مصطفى بن كمال الدين بن علي البكري الصديقي المتوفى 1162 هـ، ونسخ كتاب "فضائل مكة والمدينة وبيت المقدس وشيء من تاريخها" لأبي العباس شهاب الدين أحمد بن أحمد بن سلامة القليوبي الشافعي المتوفى 1069 هـ. وهي تستحق اشتغالا موسوعيا في الفهرسة، والوصف، والدراسة. أما بلد المغرب فحضور هذا الصنف من الكتابة فيه قليل، ومع ذلك سنقف، بحول الله، بهادة مستحسنة بما جادت به قرائح علماء هذا القطر الإسلامي عبر العصور. حتى وإن تعلق الأمر بمصنفات محققة ومتداولة بين الناس لأن الذي يعنينا بالدرجة الأولى هو الملامح المادية للنسخ.

وسأتحدث في الموضوع وفق محورين رائسين: سنقوم، في المحور الأول، بتقديم معطيات عابرة وموجزة عن أهم القضايا والفوائد المرتبطة بالقدس الشريف، والمحملة في هذه الأسفار، لاسيما وأن البعض منها قد لا يكون قد شق طريقه إلى التحقيق العلمي أو النشر من مثل كتاب" رسالة اعتبار الناسك

في ذكر الآثار الكريمة والمناسك" لأبي الحسين محمد بن جبير الكناني البلنسي الأندلسي المتوفى عام 614 هـ[1]، وكتاب "القول المستقصى عن الرحلة لبيت الله الحرام والمسجد الأقصى" لمؤلف مجهول، وكتاب" فضائل بيت المقدس وفضائل الشام" لإبراهيم بن يحيى بن أبي حفاظ المكناسي[2]. والتعريف بهذه الكتب والدفاتر التراثية هو تعريف بالقدس الشريف، وبقيمته وأهميته في وجدان العرب والمسلمين في كل بقاع العالم الإسلامي.

وقد تحصل في بلد المغرب الأقصى من المخطوطات ما يجعلنا متأكدين أن هذا البلد المسلم لم يكن ليتغافل قطرا مقدسا رسخ في خلده منذ الأزمنة الإسلامية الأولى، ولم أكتف بالدفاتر المرتبطة بالقدس الشريف بشكل مباشر، لأن الأعمال في هذا الباب نادرة جدا، خاصة إذا علمنا أن كثيرين من العلماء كانوا يسافرون إلى البقاع المقدسة راجلين أو ممتطين رواحلَ يرهقها السير أشهرا طوالا. فكانوا يكتفون، في غالب الأحيان، بزيارة مكة المكرمة، وقبر الرسول ﷺ. فنحن إذن سنشير إلى كل المخطوطات المرتبطة بالقدس الشريف من قريب أو من بعيد من مثل كتب المعجزات الكبرى، وكتب الرحلات الشاملة، والكتب المتحدثة عن بلاد الشام بشكل عام، ومن جهة أخرى فنحن سنتحدث عما يوجد في هذه الخزائن المغربية من نسخ مخطوطات وفدت إليها من بلاد الشرق لعلماء مشارقة، لأن الذي يعنينا بالدرجة الأولى هو وجودها في بلد المغرب.

---

(1) اشتغل بتحقيقه الباحث رشيد العفاقي من الرابطة المحمدية لعلماء المغرب.

(2) عاش في القرن السابع الهجري.

مخطوطات القدس في الخزانة الحسنية بالرباط:

تعتبر الخزانة الحسنية بالرباط أكبر خزانة مخطوطات في المغرب الأقصى في الوقت الراهن، ويوجد بها عدد وفير من الكتب المؤلفة في هذا الموضوع، منها نسخة من كتاب "فضائل بيت المقدس"[1] لإبراهيم بن يحيى بن أبي حفاظ المكناسي، ونسخة من كتاب "إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والتبرك بقبر الحبيب"[2] لأبي عبد الله محمد بن عبد الوهاب بن عثمان المكناسي (1213 هـ1798 م)، ونسخة من كتاب "باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس"[3] لبرهان الدين أبي إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن الفزاري (ابن الفركاح)، ونسخة من كتاب رحلة ابن جبير[4] لأبي الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي(تـ 614 هـ1217 م)[5]، ونسخة من الكتاب المشهور للمؤلف نفسه "اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك"[6]، بالإضافة إلى كتب موسوعية مشهورة تعرضت إلى القدس الشريف بشكل ثانوي من مثل نسخة من الكتاب المشهور "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"[7] لمحمد بن عبد الله اللواتي

---

(1) مخطوط الخزانة الحسنية، رقم 8161م.

(2) مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط، رقم: 12307.

(3) مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط، رقم: 212.

(4) مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط، رقم: 5855.

(5) لأبي الحسن محمد بن أحمد ابن جبير (ت614هـ) ثلاث رحلات؛ الرحلة الأولى هي المعروفة في كتاباته بالرحلة كانت سنة 579 هـ، والرحلة الثانية سنة 585 هـ (إثر استرداد صلاح الدين الأيوبي لبيت المقدس)، ثم كانت له رحلة ثالثة لا نعرف عنها شيئا.

(6) توجد نسخة مخطوطة من هذا الكتاب بالخزانة الحسنية بالرباط، تحت رقم: 1557.

(7) مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط، رقم: 4355.

ابن بطوطة الطنجي (ت 777 هـ1375م)، ونسخة من "الرحلة الحجازية"[1] لأبي العلاء إدريس بن عبد الهادي العلوي، ونسخة من "الرحلة المغربية"[2] لمحمد بن محمد بن علي بن أحمد العبدري (كان حيا 688 هـ1289م). ونسخة من "فضائل الشام"[3] لأبي سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني (ت562)، ونسخة من "فتوح الشام"[4] لأبي عبد الله محمد بن عمر الواقدي (ت207 هـ)، ونسخة من كتاب "الإعلام بفضائل الشام"[5] لبرهان الدين إبراهيم بن عبد الرحمن الفزاري المعروف بابن الفركاح، ونسخة من كتاب "الفتوحات الإسلامية"[6] لأحمد بن زيني بن أحمد دحلان المكي. ونسخة من كتاب "الترجمانة الكبرى"[7] لأبي القاسم بن أحمد الزياني (ت1249هـ) ونسخ كثيرة من "رحلة العياشي" الموسومة بـ"ماء الموائد" أو "الرحلة العياشية إلى الديار النورانية"[8] لأبي سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي المتوفى سنة 1090هـ 1679م.

---

(1) مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط، رقم: 11509 م

(2) مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط، رقم: 224 م

(3) مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط، رقم: 3580

(4) مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط، رقم: 6159

(5) مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط، رقم: 12347 م

(6) مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط، رقم: 2587

(7) مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط، رقم: 3252

(8) مخطوطات الخزانة الحسنية بالرباط، رقم: 156 -2517 م-6141- 2502 -2839- 682 -629 -5139 -5108- 11928 - 182 -4828-11798-525

مخطوطات القدس في الخزانة الوطنية بالرباط:

توجد بالخزانة الوطنية بالرباط أسفار قيمة أيضا مثل نسخة: "الروض المعطار في خبر الأقطار"[1] للسبتي (358)، ونسخة من "نصرة الفيض الأصلي"[2] للكتاني، ونسخة من "موانح القدس برحلتي لوادي القدس" لمصطفى الملقب بأسعد بن أحمد بن محمد بن سلامة القيسي الحسني (ت 1178هـ 1756 م)[3]، ونسخة من "تأليف في تاريخ الشرق العربي ومصر"[4] لمؤلف غير مذكور، ونسخة من "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"[5] لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة، ونسخة من "معراج الرسول ﷺ"[6] لمؤلف غير مذكور. ونسخة من "نزهة المقلتين"[7] لأبي شامة، ونسخة من "تاريخ دمشق"[8] لابن عساكر.

---

(1) مخطوط الخزانة الوطنية بالرباط، رقم: 238 ق

(2) مخطوط الخزانة الوطنية بالرباط، رقم: 5 / 580

(3) مخطوط الخزانة الوطنية بالرباط، رقم: 142ك

(4) مخطوط الخزانة الوطنية بالرباط، رقم: د526

(5) مخطوط الخزانة الوطنية بالرباط، رقم: 247 ق.

(6) مخطوط الخزانة الوطنية بالرباط، رقم: 1508 د 1452 د.

(7) مخطوط الخزانة الوطنية بالرباط، رقم: ق251.

(8) مخطوط الخزانة الوطنية بالرباط، رقم: 256 ق.

مخطوطات القدس في خزائن مغربية أخرى:

يوجد بخزانة ابن يوسف بمراكش دفتر يحتوي على "قصيدة في الشوق إلى الديار المقدسة"[1] للحسن اليوسي، ونسخة من "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"[2] لمحمد بن عبد الله أبي عبد الله اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة، ونسخة من "مناجاة موسى عليه السلام"[3]؛ لأحمد بن الحاج محمد بن عبد الواسع النكنافي الخلفي الجزولي. ونسخة من "نفائس الدرر من أخبار سيد البشر"[4] لمسعود بن محمد جموع، ونسخة من "استقبال جهة الكعبة المكرمة"[5] لمؤلف أندلسي غير معروف، ونسخة من "الاكتفاء في أخبار الخلفاء"[6] لعبد الله بن أبي القاسم الكردبوسي أبي مروان من رجال القرن 6 و7، ونسخة من "ذكر خبر سيدنا إبراهيم عليه السلام"[7]؛ لمؤلف مجهول. وتوجد بخزانة الجامع الكبير بمكناس نسخة من "فتوح الشام"[8] لأبي عبد الله محمد بن عمر الواقدي (ت207 هـ).

وتوجد بخزانة الزاوية الناصرية بتمكروت نسخة من "قصيدة في

---

(1) مخطوط بخزانة ابن يوسف بمراكش، رقم: م 347 / 4.

(2) مخطوط بخزانة ابن يوسف بمراكش، رقم: 412.

(3) مخطوط بخزانة ابن يوسف بمراكش، رقم: 352 / 2م.

(4) مخطوط بخزانة ابن يوسف بمراكش، رقم: 2/ 343.

(5) مخطوط بخزانة ابن يوسف بمراكش، رقم: 6/ 627.

(6) مخطوط بخزانة ابن يوسف بمراكش، رقم: 90.

(7) مخطوط بخزانة ابن يوسف بمراكش، رقم: 7/ 352.

(8) مخطوط بخزانة الجامع الكبير بمكناس، رقم: 289.

القِبلة"[1] لعلي بن سليمان الدمناتي، ونسخة من "قصة المعراج"[2] لمؤلف غير مذكور، ونسخة من "منجزات الشفا ومعجزات المصطفى حسبما أطبقته ظروف محمد الأنفعة واستنطقته حروفه الأربعة"[3] لعلي بن سليمان الدمناتي، ونسخة من "مثير الغرام وخلاصة الكلام في فضل زيارة الخليل عليه السلام"[4]؛ لتاج الدين إسحاق بن إبراهيم التدمري، و"فتوى في شأن اليهود"[5] لأحمد بن علي السوسي البوسعيدي، و"الخصائص والمعجزات النبوية الكبرى"[6] لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، و"الرحلة الناصرية إلى الديار النورانية"[7] لأحمد بن محمد بن ناصر الدرعي مؤسس المكتبة الناصرية. وفي خزانة المسجد الأعظم بتازة هناك نسخة من "رسالة في الشوق إلى البقاع المقدسة"[8] لمؤلف مجهول، ونسخة من "فتوح الشام"[9] لأبي عبد الله محمد بن عمر الواقدي. وفي خزانة الملك عبد العزيز آل سعود بالدارالبيضاء هناك نسخة من "القول المستقصى عن الرحلة لبيت الله الحرام والمسجد الأقصى"[10] لمؤلف مجهول، وهو كتاب غير معروف، وغير محقق فيما نعلم. وهناك مخطوطات أخرى كثيرة تعذر علينا الوصول إليه في اللحظة الراهنة.

---

(1) مخطوط بخزانة الزاوية الناصرية بتمكروت، إقليم زاكورة، رقم: 3134.

(2) مخطوط بخزانة الزاوية الناصرية بتمكروت، إقليم زاكورة، رقم: 2188.

(3) مخطوط بخزانة الزاوية الناصرية بتمكروت، إقليم زاكورة، رقم: 2500.

(4) مخطوط بخزانة الزاوية الناصرية بتمكروت، إقليم زاكورة، رقم: 2006.

(5) مخطوط بخزانة الزاوية الناصرية بتمكروت، إقليم زاكورة، رقم: 2571.

(6) مخطوط بخزانة الزاوية الناصرية بتمكروت، إقليم زاكورة، رقم: 190 و545.

(7) مخطوط بخزانة الزاوية الناصرية بتمكروت، إقليم زاكورة، رقم: 1032 و1952.

(8) مخطوط بخزانة المسجد الأعظم بتازة، رقم: 336/ 4.

(9) مخطوط بخزانة المسجد الأعظم بتازة، رقم: 578

(10) مخطوط بمؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية بالدارالبيضاء رقم: 11.

مكانة القدس الشريف في نفوس المغاربة

قبل أن أقول في الملامح المادية لجملة من أوعية المعرفة التي وقفنا بها في خزائن المغرب، يطيب لي أن أظهر مدى قدسية القدس الشريف أو الأرض المباركة أو "إيلياء"حسب المسميات الكثيرة التي تطفح بها كتب التاريخ في هذه الدفاتر المغربية المخطوطة، بصرف النظر عن انسلاكها في التحقيق مرات عديدة أو عدم تحقيقها، لأن قصدي هو الصورة المخطوطة للكتاب. وهكذا ففي "تحفة النظار". المشهورة، يخصص ابن بطوطة فضاء للحديث عن زيارته للقدس الشريف والأماكن المحيطة به، فهو لا يكتفي بوصف المسجد المقدس، وقبة الصخرة، وإنما يتعدى ذلك للحديث عن زيارته لتربة يونس عليه السلام، ووقوفه على وادي جهنم في شرقي البلد، ومصعد عيسى عليه السلام إلى السماء، وقبر رابعة العدوية، وقبر مريم العذراء عليها السلام، وكنيسة يعتقد الناس أن بها قبر عيسى عليه السلام. ويفعل المكناسي الأمر نفسه في كتابه "إحراز المعلى والرقيب". إذ يصف هو بدوره بيت المقدس وقبة الصخرة، ويصف سور الأقصى وأبوابه، ويصف عددا من الأماكن المقدسة الأخرى من مثل الموضع الذي به محراب سيدتنا مريم عليها السلام، ومهد عيسى عليه السلام، والفضاء المحمول عليه المسجد الأقصى كله. ثم إنه يصف تربة سليمان عليه السلام، ويذكر زيارته لصهيون؛ موضع سيدنا داوود عليه السلام، والمكان الذي كان يحكم فيه سيدنا داوود عليه السلام، وتربة نبي الله داوود. ويذكر زيارته لمربط البراق، وزيارة قبر الصحابي عبادة بن الصامت، وضريح سيدتنا مريم ابنة عمران. وقبر الشيخ محمد العلمي، والمكان الذي رفع منه عيسى ابن مريم، وزيارة تربة النبي عزير، وقبة المعراج، وزيارة قبر راحيل أم يوسف عليه السلام، ويذكر زيارته أيضا

لحبرون بلدة سيدنا إبراهيم عليه السلام، والصخرة المشرفة، ومآثر العثمانيين في بيت المقدس، وزيارة بئر أيوب عليه السلام.

ويظهر هذا الحب أيضا في كتابة العلامة أبي الحسن محمد ابن أحمد ابن جبير الكناني المتوفى سنة 614 هـ 1217 م، إذ إنه يقول في رحلته المعروفة بـ"رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك"، والمذكورة ضمن مخطوطات المغرب الأقصى، وهذا كتاب أخطأه الباحثون، ويشكل موجها أساسا لزيارة بيت المقدس، إذ يعلم ما يجب أن يفعله الزائر إزاء وجوده بهذا البلد المقدس: "فاعمل ركابك إلى المسجد الأقصى، واستقص الطواف بجميع آثاره المقدسة، فمثلك من استقصى، وإن استطعت الإحرام منه أولا فهو فضل عمل صالح يذخر. وتبرك بالصخرة المقدسة فمنها كان معراج سيد البشر، وصل خلفها، فهي المكان القريب الذي ينادي المنادي منه للمنشر والمحشر، وادخل قبة السلسة واركع فيها. وصل في محراب زكريا، وفي محراب مريم حيث دخل عليها فوجد الرزق من الله لديها، وارق في محراب داود حيث كان تسور الخصم، وصل فيه متوسلا إلى الله بشرف ذلك الرسم. ولا تمش في جميع تلك الأرض المقدسة إلا بانكسار واستحياء، فإنك لا تخطو منه خطوة إلا على مواطئ أقدام الأنبياء. ولا تنس أن تتطهر في عين سلوان، واذكر فيه من لم يحدث عنك بسلوان، ثم أخذت للخليل في الرحيل فابدأ في أول طريقك بقبر راحيل، ثم بمولد المسيح وموضع مهده، واعطف على موضع جذع النخلة التي هزت به مريم فاسَّاقط عليها رطبا جنيا. ثم ألمم في طريقك وحق لك الإلمام بقبر يونس ولوط عليهما السلام، فإذا انتهيت إلى قبر الخليل، وقبر إسحاق ويعقوب، فهنالك تقبل مزارك، وتحط إن شاء الله أوزارك. وخارج ذلك الحرم

الخليلي – على ما يذكر – قبر يوسف الصديق والله أعلم بالتحقيق"[1]. وهكذا يعتبر هذا الكتاب الذي مازال مخطوطا دليلا قيما لغير العارفين بهذه البقاع المقدسة وخاصة بالنسبة للمغاربة الذين كانوا يتوقفون فقط على الرحلة الحجازية[2]. وأما أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن مسعود العبدري المتوفى سنة 720 هـ، فهو لم يزر القدس الشريف إلا في عودته إلى بلده المغرب، وكان حديثه عنها عابرا بالمقارنة بوصفه لمكة والمدينة.

ويضمن العياشي رحلته لواعجه الجياشة في زيارة هذا المكان المقدس بعد أن أخطأه الأمر في رحلته الأولى، إذ نستشف نزعته الصوفية إزاء القدس الشريف؛ ثالث الحرمين، ومشاهدة الأرض المقدسة المباركة، ومعاينة آثار الأنبياء أكثر من وصف هذه الأماكن، ثم يتحدث عن ابتهاجه مما رأى فهو يصف بيت القدس بدقة وقبة الصخرة، ويصف الحجر الذي يتبرك به الناس على أساس أنه مربط البراق، ويصف طور زيتا، وهو مكان يوجد بين المسجد والوادي الكبير الذي يسمى وادي جهنم، ويصف المزارة التي توجد أعلى طور زيتا، والتي يقال إن منها رفع عيسى ابن مريم عليه السلام، ويصف عين سلوان التي توجد أسفل الوادي، وقبر شداد بن أوس، وقبر عبادة بن الصامت، وصخرة عظيمة يقال إنها من آثار النبي سليمان عليه السلام، وموضعا يقال إنه هو عرش سليمان عليه السلام، وقبر النبي داوود، وقبر يونس بن متى عليه السلام، ثم يتحدث

(1) مخطوط الخزانة الحسنية رقم: 1757.

(2) نذكر من هذه الرحلات التي تدخل في إطار الرحلات الحجازية رحلة المصعبي إبراهيم بن بحمان المتوفى سنة 1232 هـ، ورحلة القطب الشيخ احمد بن يوسف بن عيسى اطفيش المتوفى سنة 1238 هـ.

عن رغبته الجامحة في زيارة قبر الخليل ونبيه عليهم الصلاة والسلام، ورغبته في زيارة قبر نبي الله موسى عليه السلام الذي يوجد على مسافة كبيرة في شرقي القدس، ويلاحظ على العياشي روحه الصوفية في زيارة القبور، والتعرف على أولياء الله الصالحين، فهو قد تعرف هناك على شهاب الدين الحنفي، وعمر العلمي، والنفاتي قاضي القدس، وغيرهم كثير. أما أبو الحسن اليوسي فيضمن لواعجه وأشواقه في قصيدة عصماء لم يسبق لأحد أن أخرجها إلى النور، إذ يربط قدسية الحجاز بأرض المقدس وما وقع فيها من معجزات، ، إذ يقول:

جد في سيرها فلست تلام ... هذه طيبة وهذا المقام
حرام حله نبي كريم ... وإمام بجنبه وأمام
ليلة الإسراء أهل كل سماء ... سجد الكل إذ رأوك وقاموا
وتقدمت للصلاة فصلوا ... كلهم مقتد وأنت الإمام
يا نجي الإله في حضرة القدس ... كريم له هناك يقام[1]

ويظهر من كتاب مناجاة موسى لمؤلف مجهول أن القدس هي الدرة التي شكلت محورية خلق الأرض[2].

التراث المقدسي المغربي بين المخطوط والمطبوع:

إذا كان للقدس هذه المكانة السامية لدى المغاربة، فنحن كنا ننتظر أن تساوق ممارسة تحقيق هذا التراث الثمين هذا الأمر. إننا متحدثون، إذن، في هذا الباب عن كيفية إخراج هذا التراث القيم الرابض في خزائن الكتب في

(1) قصيدة اليوسي ضمن المخطوط رقم: 347 بخزانة ابن يوسف بمراكش.
(2) الكتاب الثاني من المجموع رقم: 352، بخزانة ابن يوسف بمراكش.

وضعيات مختلفة. إذ تنضاف إلى ندرة المؤلفات المصنفة في هذا الباب طبيعة إخراج هذه المادة العلمية القيمة. ويمكن القول، إجمالا، إن إخراج هذا التراث المقدسي بقي عشوائيا، وذوقيا، وتجاريا، في أغلب الأحيان، ومثال ذلك أن عبد الهادي التازي قد ذكر في تحقيقة لرحلة ابن بطوطة عددا لا يستهان به من المادة المخطوطة الموجودة في المغرب وخارجه من مثل نسخة القرويين[1]، ونسخ الخزانة الحسنية[2]، ونسخ الخزانة الوطنية بالرباط[3]، ونسخة مخطوطة في خزانة وزان[4]، ونسخة ابن يوسف[5]، وعدد من النسخ بالخزانة الوطنية بباريس[6]، ونسخة بخزانة دار الكتب بتونس[7]، ونسخ أخرى من الأكاديمية العلمية في لشبونة، ودار الكتب المصرية، والفاتيكان، وغير هذا مما لم نذكر حتى إننا توهمنا أن هذا التحقيق سيكون مستجيبا لشروط نقد النصوص، ومع هذا فإن واقع تحقيق هذا الكتاب ينطق بخلاف هذا الكم الهائل من النسخ التي أثبتها في صدارة تحقيقه إيعازا منه بنقد النص. وهو لم يفعل شيئا من هذا، وإنما أخرج الكتاب كما كان مطبوعا بطريقة ذوقية، وانهال عليه بالشروح والتعليقات التاريخية، وما سار في هذا المنحى، ظنا منه أن ذلك هو تحقيق التراث، فكان أن أخطأته أشياء كثيرة في هذا العمل، الأمر الذي حتم عليه

(1) نسخة بخزانة جامع القرويين بفاس رقم 561.

(2) النسخ رقم 4355 -3631 -8218 -356 -151 -3030.

(3) النسخ رقم 2399 / ك، 2541 / د، 247 ق، 248 / ق.

(4) نسخة بخزانة وزان رقم: 31.

(5) نسخة بخزانة ابن يوسف بمراكش رقم 412.

(6) النسخ رقم 2289 / 910، 2287 / 909، 2291 / 907، 2288 / 911، 2290 / 908.

(7) نسخة دار الكتب بتونس رقم 5048.

وضع مستدركات على هذا التحقيق[1]، علما أن هناك إخراجات كثيرة للعمل نفسه يمكن أن نناقشها على ضوء نقد النصوص، على النحو الذي نجد عليه تحقيق محمد عبد الرحيم[2]، ونجد عليه أيضا تحقيقي طلال حرب ومحمد سعيد محمد الزيني.

ونجد أيضا أن رحلة ابن جبير أخرجها بطريقة تقليدية إبراهيم شمس الدين[3]، وصدرت بصيغة تجارية محضة عن دار صادر بيروت. وقبل هذا وذك نشرت ضمن المحاضرات والمسامرات لابن عربي، ولم تنسب إلى ابن جبير، وإنما نسبت خطأ لأحد علماء المغرب. وأخرج عبد الكريم الفيلالي "الترجمانة الكبرى"[4] أيضا بطريقة آلية دون انشغال بهم الدراسة النقدية للنسخ، ولا اتخاذ عدد من النسخ في إخراج النص، وهي الملاحظة نفسها التي نلاحظها عن إخراج محمد بوكبوط لـ "إحراز المعلى والرقيب"[5] والتي نلاحظها عن تحقيق "ماء الموائد"[6]، و"رحلة

(1) مستدركات على كتاب تحفة النظار في غرائب الأمصار، دار المناهل، الرباط: 2004.

(2) تحفة النظار في غرائب الأمصار. تحقيق محمد عبد الرحيم، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت؛ 2007م..

(3) رحلة ابن جبير، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان: 2003م.

(4) الترجمانة الكبرى لمؤرخ الدولة العلوية أبي القاسم الزياني، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، دار نشر المعرفة: 1412 هـ1991 م.

(5) إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الخليل، لمحمد بن عبد الوهاب المكناسي تحقيق محمد بوكبوط، دار السويدي، أبو ظبي: 2003 م.

(6) طبعت رحلة العياشي طبعة أولية تجارية في فاس سنة: 1316 هـ، ثم أخرجها في 2006 م كل من الدكتور سعيد الفاضلي والدكتور سليمان القرشي عن دار السويدي أبو ظبي.

العبدري"[1]. وعموما نقول إن تحقيق التراث المقدسي المغربي ما زال أمرا عصيا على البحث العلمي دونه التفرغ لهذا المجال العلمي، والتكوين الأكاديمي الصميم في نقد النصوص وإخراجها، وهذا الأمر ينطبق في جانب كبير منه على تراثنا الثقافي برمته دون حصر مجال علمي على حساب آخر.

الصورة المادية لمخطوطات القدس الشريف في المغرب:

نقصد بهذا المحور، في بحثنا هذا، تبين المميزات المادية لبعض مخطوطات القدس الشريف في بلد المغرب الأقصى، وعلاقتها بالمنحى الدلالي لهذا الصنف من الكتابات. وسبيلي في دراسة هذه الأوعية اعتماد الملاحظة والوصف الأثري لمادتها وخطوطها من خلال علم المخطوطات. علما أن الشكل المادي والصورة الباليوغرافية للآثار القديمة لها أثرها في ترجمة محتويات هذه المخطوطات. وأشير إلى أن هذا المشروع لن يصل إلى غايته العلمية البعيدة، طالما أن مادة البحث قليلة ومنحصرة، وإنما سنكون بإزاء أوصاف عابرة تشكل المهاد الأولي لتركيب[2] محتمل مفتوح في الزمان والمكان. ومن منطلق ندرة هذه المادة المخصوصة بالقدس الشريف، فإننا وسعنا معايير انتقاء المادة لتستوعب المخطوطات المرتبطة بموضوع القدس من قريب أو بعيد، والمادة النساخية التي تصب في القدس بشكل من الأشكال مثل التقاييد، والإشارات العابرة، والطرر المفيدة، ونحوها.

---

(1) الرحلة حققها أولا علال الفاسي، وصدرت عن جامعة محمد الخامس بالرباط، ثم حققها علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين: 1999م.

(2) لا يمكن أن نتحدث عن تركيب إلا بعد ملاحظة أقصى ما يمكن من النسخ في أزمنة وأمكنة متنوعة.

الصورة التقنية للمخطوطات المدروسة:

كل المخطوطات المرتبطة بالقدس الشريف التي وقفنا بها في بلد المغرب مصنوعة من الورق، وإنما يكمن الاختلاف في نوعية هذا الورق، إذ إن هناك ورقا قماشيا غنيا بالسيلولوز قادرا على الصمود ومواجهة حدثان الدهر، كما هو الأمر بالنسبة للنسخة رقم: 2517 من رحلة العياشي الموجودة بالخزانة الحسنية التي مازالت تحتفظ بصورة مادية جيدة، بالرغم من مرور ما يزيد تقريبا على ثلاث مائة سنة على كتابتها، ، وهناك بالمقابل ورق خشبي ضعيف من مادة السيلولوز، كما هو الأمر بالنسبة للبناء الورقي في النسخة رقم 5855 من رحلة ابن جبير الموجودة بالخزانة الحسنية بالرباط، إذ إن أوراقها تفتت وتلاشت وأصبحت هباء، وجعل المخطوط في صندوق كارتوني، وهو الأمر أيضا بالنسبة للنسخة 412 من رحلة ابن بطوطة في خزانة ابن يوسف بمراكش. أما عن صناعة الكراريس فهي تختلف في جرمها من الرباعية ذات الجرم الكبير، إلى الخماسية ذات الجرم المتوسط، كما هو الأمر بالنسبة للنسخة 8161 من "فضائل بيت المقدس" إلى السداسية والثمانية ذات الجرم الصغير. والخماسيات هي نموذج الملزمة المسيطرة في المادة المدروسة، على النحو الذي نجد عليه المخطوط 8161 من "فضائل بيت المقدس" الموجودة بالخزانة الحسنية، والنسخة 224 من "رحلة العبدري" الموجودة بالخزانة نفسها وغيرهما كثير. ونلاحظ في تركيب الصفحة أن هناك نوعين متمايزين؛ نوع عشوائي وأولي بسيط، وهو الذي لا يرضخ لمعملية الصناعة، ويكون في غالب الأحيان مجدولا، كما هو الحال بالنسبة للنسخة 903 من "فتوح الشام".

الموجودة بالخزانة الوطنية، إذ إنها مجدولة بالأحمر. والجدولة تعني عدم احترام الصناعة المحترفية الأصيلة للمخطوط، الأمر الذي يترتب عنه خرق التراتب المعهود في تركيب الصفحة، ومع ذلك فهناك تراتبية في نسب الهوامش. فالهامش الداخلي هو الأصغر، يليه هامش الرأس، ثم هامش الخارجي، وأخيرا هامش الذيل.

ونوع آخر من تركيب الصفحة مهيمن على أغلب المادة المخطوطة، ولا يظهر فيه أثر للجدولة، وهذا النوع استعمل المنحت أو المُسَطِّرَة[1]، كما هو الأمر بالنسبة للنسخة 4355 من "رحلة ابن بطوطة"[2] و3252 من "الترجمانة الكبرى"[3].

وقد تبقى آثار المنحت ظاهرة للعيان. وفي بعض الأحيان نلاحظ وجود المنحت، ومع ذلك قام الصانع بالتسطير الأولي للنسخة، كما هو الأمر في النسخة 2517 من رحلة العياشي. وقد تبقى علامات المنحت بادية للعيان عند انتهاء النساخة كما وقع في النسخة 4217 من "الأنس الجليل بتاريخ القدس"[4]. لعبد الرحمن العليمي.

---

(1) معجم مصطلحات المخطوط العربي أحمد شوقي بنبين ومصطفى الطوبي منشورات الخزانة الحسنية الرباط الطبعة الثالثة 2005 ص: 332.

(2) الخزانة الحسنية بالرباط.

(3) الخزانة نفسها.

(4) الخزانة نفسها.

التسفير[1]:

يسمى التجليد في الاصطلاح المشرقي. ويمكن أن نتحدث عن بعض خصائص التسفير المغربي من خلال المادة المدروسة. وقد لاحظت في هذه المادة ضربين من الأغلفة؛ أغلفة أصلية تعكس خصوصيات التسفير المغربي، وأغلفة غير أصلية تدخل في إطار التدارك العشوائي للمادة المخطوطة في الخزائن العامة والخاصة أو الصيانة والترميم.

وهكذا يمكن القول إن تسفير النسخة رقم: 412 من خزانة ابن يوسف بمراكش التي هي "رحلة ابن بطوطة" تستجيب لخصائص التسفير المغربي. إذ إن الغلاف بالرغم من تآكله ما زال محافظا على ملامح الترنجة وسط جلدة الغلاف، واللسان أو المرجع الأكبر وهو الجلدة المشدودة إلى الدفة اليسرى، والتي تغطي فم المخطوط، كما نلاحظ في هذه النسخة آثار خيوط البرشمان الظاهرة للعيان بعد تفكك النسخة على قفا المخطوط، الأمر الذي أتاح ملاحظة ظهور الكراريس المشكلة لمجموع السفر.

ونلاحظ الأمر نفسه أيضا في النسبة للنسخة 2517 من رحلة العياشي التي مازالت تحتفظ بتسفيرها الأصيل بالمرجع الأكبر وترنجة حمراء وسط جلدة الغلاف البنية. وفي مقابل ذلك هناك عدد من المخطوطات التي افتقدت لتسفيرها الأصلي، وتم استبدال هذا الغلاف بغلاف بديل كما هو الأمر بالنسبة للنسخة 247 من رحلة ابن بطوطة الموجودة بالخزانة الوطنية، والنسخة 142 ك من "موانح الأنس" في الخزانة نفسها. والنسخة 8161 من "فضائل بيت المقدس" الموجودة بالخزانة الحسنية.

---

(1) نفسه ص: 86.

الصورة النسقية للمخطوطات المدروسة[1]:

أول ما نقف به في هذا الباب هو الخط الذي كتبت به المادة المدروسة، ولا نقصد الجانب الكاليغرافي لأنه باب مستقل، وعلم قائم بذاته، وإنما الجانب المادي البحت أو نوع الخط وعلاقته بمادة الكتابة والنساخة على حد سواء. ونلاحظ أن كل المخطوطات المدروسة كتبت بخط مغربي. إلا أننا نلاحظ تنوعا في هذا الخط؛ فهناك الخط المغربي الفاسي[2]، والخط المغربي الفاسي الدقيق[3]، والخط الصحراوي[4]، والخط الأندلسي[5]، والخط الأندلسي المتمغرب[6]، والخط المشرقي[7]. وهذه الخطوط كلها تسهم، من جهة، في تأكيد أصالة الانتماء الإقليمي للمخطوطات، ومن جهة أخرى تسهم في تبين رحلة المخطوط من مكان إلى آخر. فالخط المشرقي، والخط الأندلسي، والخط الصحراوي، إنما هي أصواء لتأكيد التثاقف الذي حصل بين أقاليم الحضارة الواحدة، حتى وإن شطت الأزمنة والأمكنة. وتعذر التواصل المعرفي بين الأقاليم الإسلامية بشكل آني.

---

(1) مصطلحات الصورة النسقية للمخطوطات والصورة التقنية مقترحة في رسالتي لنيل دبلوم الدراسات العليا في علم المخطوطات "تقديم في الكوديكولوجيا" نوقشت بكلية الآداب بالرباط في 1997م.

(2) تنظر النسخة 412: خزانة ابن يوسف مراكش.

(3) تنظر النسخة خ ح: 5855 من رحلة ابن جبير، ونسخة ابن يوسف رقم: 352.

(4) النسخة خزانة ابن يوسف: 627.

(5) تنظر النسخة خ، ح، 2517 من رحلة العياشي.

(6) النسخة خ ح: 4355 من "تحفة النظار. ".

(7) النسخة رقم خ، ح، 8161 من "فضائل بيت المقدس". والنسخة خ، و؛ ك142.

بداية النص ونهايته:

يبدأ النص المقدسي، شأن النصوص التراثية الأخرى بالبسملة والتصلية على النبي ﷺ. إلا أن اللافت في البداية المقدسية أنها تحيل على أهمية المكان وقدسيته في عمل المسلمين، على النحو الذي نجد عليه نسخة من "فضائل بيت المقدس"[1]. حيث نجد البداية الآتية: "بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله. الحمد لله رب العالمين وخالق العرش العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم أفضل الصلاة والتسليم أعلم أن الله ﷻ جعل الشام مسكن أكثر أنبيائه وأوليائه". وعلى النحو الذي نجد عليه أيضا بداية النسخة 12307 من كتاب: "إحراز المعلى والرقيب" للمكناسي: "الحمد لله العليم الخبير العلي الكبير. ونصلي ونسلم على سيدنا ومولانا محمد خاتم أنبيائه. أما بعد فإن التنقل في البلاد والتأمل في مخلوقات الله من العبادة تذكرة للقلوب وأي تذكرة وتبصرة يا لها من تبصرة". وقد يكون هناك جزءا أساسا من بداية النص في وسط إطار مزخرف يسمى في ثقافة الكتاب السرلوحة[2]، ويكون مزخرفا بالذهب في أغلب الأحيان مثلما نجد الأمر في النسخة: 903 د من "فتوح الشام" الموجودة بالخزانة الوطنية، إذ كتب وسط سرلوحة بديعة جدا مؤطرة بزخارف لولبية محشوة بنمنمات ذهبية ما يلي: "قال الشيخ الإمام العالم العلامة الحافظ سيدي محمد بن عمر الواقدي رحمه الله تعالى ورضي عنه آمين".

---

(1) النسخة رقم 8161: الخزانة الحسنية، بالرباط.

(2) ينظر معجم مصطلحات المخطوط العربي؛ أحمد شوقي بنبين ومصطفى الطوبي، منشورات الخزانة الحسنية، الرباط، الطبعة الثالثة 2005: ص: 198.

أما نهاية النص المقدسي فهي، شأن كل نهايات المخطوطات، نهايتان؛ نهاية النص بمفهومه الصميم، وهو ما يسمى في الثقافة المادية للمخطوط explicit[1]، وما يأتي بعد نهاية النص من معلومات عن تاريخ النسخ، واسم الناسخ، وهلم جرا، والتي تأتي غالبا في شكل مثلث، وتسمى حرد المتن[2] colophon، ويتولى هذا الأمر الناسخ نفسه. وهكذا يشير ناسخ النسخة 247ق من رحلة ابن بطوطة الموجودة بالخزانة الوطنية بالرباط إلى انتهائه من نسخها بقوله: " أكملته بحمد الله وحسن عونه يوم الأحد رجب الفرد المبارك عام 926 هـ"، ويشير ناسخ النسخة 412 من خزانة ابن يوسف للكتاب نفسه إلى الانتهاء من النسخ وتاريخ النسخ قائلا: "انتهت الرحلة المسماة بتحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار بحمد الله العلي العظيم. وكان الفراغ من تسويد هذه الرحلة الجامعة لأخبار أقطار الآفاق المحكمة الوثيقة لست خلون من جمادى الأولى صبيحة يوم الجمعة سنة تسع ومائة وألف وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين". وتارة نجد أن الناسخ يغتنم إشارة حرد المتن ليفرق بين المسودة والمبيضة، كما هو الأمر بالنسبة للنسخة 12307 من "إحراز المعلى". التي جاء في ختامها ما يلي: "وكان الفراغ من تبييضه منتصف ذي الحجة من شهور سنة اثنين ومايتين وألف" وقد يغفل الناسخ الإشارة إلى تاريخ النسخ في حرد المتن على النحو الذي نجد عليه حرد متن النسخة: 224 من رحلة العبدري، إذ يقول الناسخ في نهاية النسخة: "انتهت الرحلة المباركة بحمد الله تعالى وحسن عونه وتوفيقه الجميل وصلى الله على سيدنا ومولانا

(1) نفسه ص: 368.

(2) المرجع السابق الذكر، ص: 128.

محمد المصطفى الكريم وعلى آله وصحابته الأخيار". وتأتي نهاية "القول المستقصى عن الرحلة لبيت الله الحرام والمسجد الأقصى" معبرة عن حداثة هذه الرحلة "يوم الأربعاء على الساعة الثانية عشر جزنا جبل طارق بعد مدينة مالقة. وفي اليوم نفسه وطأنا أرض الثغر الطنجي ومن الغد الذي هو يوم الخميس 4 صفر الخير عام 1353 هـ".

التعقيبة[1]:

توجد التعقيبة في كل المادة المدروسة وتسمى أيضا الرقاص أو الوصلة. وتختلف التعقيبة من مخطوط إلى آخر. فهناك التعقيبة الأفقية على النحو الذي نجد عليه النسخة 8161 من "فضائل بيت المقدس" والنسخة 2517 من "رحلة العياشي"[2]، وهناك التعقيبة العمودية أو المائلة[3]. وهناك التعقيبة ذات المورفيم[4]، والتعقيبة ذات الكلمة الواحدة[5]، ثم التعقيبة التي تتجاوز الكلمة. وقد يحصل أن يكون هناك إلى جانب التعقيبة ترقيم حديث بالأرقام، على النحو الذي نجد عليه النسخة 903 د، من "فتوح الشام"، إذ إن التعقيبة في هذه النسخة ملتحمة بالنص الأمر الذي حذا بالجهة المالكة للمخطوط إلى أن تتصرف في ترقيمه وترقمه ترقيما عصريا مرشوما، ويرجح أن الذي قام بهذا الأمر هو كلية الآداب بالرباط على أساس أنها هي أصل المخطوط.

---

(1) نفسه. ص: 93.

(2) موجودة بالخزانة الحسنية بالرباط. وتنظر أيضا النسخة: 903 في الخزانة الوطنية.

(3) تنظر النسخة 627 خزانة ابن يوسف.

(4) ينظر بهذا الخصوص النسخة 412 من خزانة ابن يوسف، إذ تتكون التعقيبة أحيانا من نصف كلمة.

(5) أغلب التعقيبات في المادة المدروسة مكونة من كلمة مستقلة.

المقابلة[1]:

تكتب عبارة المقابلة في صفحة ما قبل البداية، وغالبا في صفحة النهاية، وقد تتخلل النص، فتشير إلى سيرورة المقابلة على النحو الذي نجد عليه نسخة متداولة في المغرب من "تاريخ دمشق". لابن عساكر، إذ كتب في هامش الطرة الخارجية من الصفحة 24 ما يلي: "بلغ مقابله على أصله حسب الطاقة"، وفي الصفحة 134 "بلغ مقابلة بأصله"، وفي الصفحة 234 في طرة الرأس: "بلغ مقابلة على أصله". وهكذا استرسل الناسخ في كتابة العبارة نفسها في الصفحات 274 و314 و374 و414 و615 و675. وتعبر المقابلة على هذا الحرص الكبير الذي كان يوليه ناسخو المخطوط لضبط محتوياته، إذ كان العلماء يمتثلون للمقولة النساخية المشهورة "اكتب وقابل وإلا اطرح في المزابل ". فالنساخة كانت محفوفة بخطر التغيير والتزوير وهو ما أعطى مشروعية لهوامش ظلت تشهد على هذا الأمر من مثل هذه الأبيات التي غالبا ما نجدها في المخطوطات:

وما من كاتب إلا سيفنى ويبقي الدهر ما كتبت يداهُ

فلا تكتب بخطك غير شيء يسرك في القيامة أن تراهُ

التملك[2]:

يسهم قيد التملك في إضاءة تاريخ النسخة، وهكذا فنحن نجد في النسخة 142 ك، من "موانع القدس". الإشارة الآتية: المكتبة الكتانية لمالكها محمد عبد

(1) نفسه، ص: 344.

(2) نفسه، ص: 102.

الحي الكتاني بفاس. "وفي الصفحة الأولى تمليك كتب فيه" ملكها من فضل ربه حسن بن إبراهيم البيط وبالشراء الشرعي من السيد محمد بن مصطفى أسعد اللقيمي بثمن قدره ثلاثون قرشا. وذلك في 21 ربيع الأول 1203 هـ سعيد بن إبراهيم المالكي إبراهيم وأخوه عبد الله سكري محمد بن سليمان ضوضرار. ثم كتب فيه تمليك آخر ورد فيه "هي الآن في ملك الحقير محمد عبد الحي ابن الشيخ عبد الكبير الكتاني قدمها إلى الأستاذ الشيخ محمد بن محمد المبارك. وكتب ذلك مالكها الخاص بالقدس الشريف ثاني يوم من دخوله يوم الجمعة حادي عشر ربيع الأول عام 1320 هـ". والنسخة في اللحظة الراهنة في ملك الخزانة الوطنية بالرباط. إن هذه المعلومات التمليكية ذات أهمية قصوى في بناء تاريخ النسخة التي غالبا ما تعدمنا الأصواء الدالة عليها.

وتدخل في إطار النساخة جملة من الفوائد التي قد يكتبها النساخ أو مالكو المخطوط أو مستكتبوه. وهكذا نقرأ في نهاية المخطوط رقم خ، ح، 4217 (الأنس الجليل بتاريخ القدس). جملة من الفوائد نذكر منها ما يلي: "إذا أردت حركة الإقبال فانقص من سني الهجرة إحدى عشرة التي مضت قبل قول النبي ﷺ إلا أن الزمن كهيئة يوم خلق الله السماوات والأرض وأقسم الباقي على ستة وستين تخرج الحركة والسلام". ويعنون الفائدة أحيانا باسمها كقوله مثلا: "فائدة: تأخذ نصف ارتفاع الشمس عند الزوال وتحمل عليه عشر تمام ارتفاع الزوال إلى التسعين وما اجتمع فهو ارتفاع العصر". وأحيانا نجد أن الناسخ ينتخب للفائدة عنوان مضمونها من مثل ذكر كلمة "استخارة": في نهاية النسخة 6141 من رحلة العياشي حيث كتب ما يلي: "من خط العلامة سيدي محمد الطرنباطي ما نصه: من خط شيخنا العلامة سيدي محمد جسوس

رعاه الله ما نصه هذه الاستخارة مروية القطب مولانا عبد السلام بن مشيش نفعنا الله به؛ روى عنه أنه قال: إذا عسر على أحدكم أمر الدنيا والآخرة، وأراد معرفته فليأخذ طينا ويعجنه عجنا جيدا، ويحصل منه كورتين مثل الجوزة، وتكونان وزنا واحدا، ويكتب بطاقتين في الأولى استخرت بالله العلي العظيم أفعل، وفي الثانية استخرت بالله العلي العظيم لا أفعل، ويجعل كل واحدة من البطاقتين في كورة بعد أن يصلي ركعتين يقرأ في الأولى بالفاتحة وإنا أنزلناه خمس عشرة مرة، وفي الثانية مرة والإخلاص والمعوذتين ويسلم كالعادة، ثم يسجد بعد السلام، ويقول في سجوده استخرت بالله ورحمته في كل عافية مائة مرة ويستغفر الله خمس عشرة مرة، ويصلي على النبي صلى الله عليه، كذلك ثم يجعل في إناء فيه ماء طاهر كل من البطاقتين، ويغطي عليهما حتى ترفع أحدهما على وجه الماء فخذها واقرأ ما بها فإنك استشرت مع ربك "وورد في آخر رحلة العياشي المذكورة أيضا": ما يكتب للسوس في ثلاث شقاف فخار غير مطبوخ يكتب في الأول ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ إلى قوله: ﴿كَسَبُوا﴾ [سورة البقرة آية: 264]، وفي الثانية ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ إلى ﴿غَلِيظٌ﴾ [سورة إبراهيم آية: 17]، وفي الثالثة: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا﴾ إلى ﴿أَلِيمًا﴾ [سورة المزمل آية: 12، 13].

للنمل ما يكتب للنمل إذا كثر في موضع تأخذ شيئا من القطن وشيئا من الحلتيت وتجعله في القار فإنه يموت ويمنعه من الخروج. وهناك فوائد أخرى للحفظ والبق والبركة وغير ذلك. "وأحيانا يكون هناك تعليق أو ثناء في نهاية النسخة يظهر انطباع القارئ إزاءها على النحو الذي نجد عليه النسخة 142 ك، من "موانح الأنس". "إذ كتب في آخرها: أما بعد فقد اطلع عبد الأعتاب على هذه الرحلة المقدسية فرأى عجائب العلوم وغرائب الفهوم ما يشهد لمنشئها بعلو المقام فحين شام بديع مكانها ورفيع مبانيها أراد التطفل على

منشئها ببعض ثناء يليق بجنابه المهاب. ثم جرى على اللسان أبيات ركيكات المبنى والمعنى فتطفل في سردهم هنا لينال في هذه الإمام وليكون منظوما:

موانح أنس في علا حضرة القدس روايح غرس في حلا منحة الأنس
فواتح تقديس لوايح بهجة نفايح تاسيس ونور الصيب الشمس
عولي علوم في عليم لعالم لآلئ فهوم في بحور النهى ترسي
فيوض تدلت في حضاير حضرة سنا سترها قد لاح من منزل الهمس

وبالرغم من الركاكة الملحوظة في مثل هذه الفوائد، فإنها تترجم كيفية تلقي مواضيع المخطوط من لدن جمهور عريض من المغاربة، وخاصة ما يتعلق بالمقدسات.

"يا كيكتج"[1] أو "كبيكتج" بحسب تعبير أهل المشرق وهي عبارة أو كلمة نجدها في كثير من المخطوطات، كان القدامى يعتقدون أنها اسم جني يعصم المخطوطات من التآكل والأرضة، ونلاحظ ذلك في النسخة: 4355 من رحلة ابن بطوطة الموجودة بالخزانة الحسنية بالرباط إذ سجل في آخرها ما يلي: "يا كيكتج احفظ هذا الكتاب". وهي عبارة تعكس وعي الصيانة عند الناس في ظروف ثقافية واقتصادية مختلفة عن ظروفنا.

وختاما نقول إن هذه الأوصاف المادية هي، من جهة، بناء مادي متماسك يشكل أرضية مستقلة للبحث الأركيولوجي، الأمر الذي يعطي مشروعية لبعض العلوم الحديثة المشتغلة بهذا الباب مثل الكوديكولوجيا، وهي تشكل من جهة أخرى بوابة لإضاءة تاريخ مسكوت عنه لا شعوري يكمن في مادية

(1) معجم مصطلحات المخطوط العربي. ص: 389.

المخطوطات نفسها ومن شأنها تجلية معطيات قد تكون محظورة في التاريخ الرسمي. ومن ذلك أننا ننتهي إلى مدى حب بيت المقدس لدى المغاربة من خلال وجود أنواع عديدة من الخطوط التي تؤرخ لأقاليم مختلفة من مثل بلاد الشرق الإسلامي، والأندلس، والصحراء بمفهومها القديم. ثم إننا نلمس هذا الأمر من خلال حرس الناسخين على تقويم النسخة في صورتها السليمة، إما بالمقابلة أو بتدوين عبارت تم الاعتقاد أنها مجدية في وجوده مثل "ياكيكتج" أو حتى من خلال التعاليق التي كانت تجود عن قرائح النساخ ومالكي المخطوط، والتي كانت تترجم حبهم الجارف للقدس الشريف وخدمتهم المتفانية لخدامه. ولعل هذا الحب لا تترجمه المعطيات النساخية فقط بل حتى المعطيات التقنية لمخطوطات القدس تحيل أصالتها ومحترفيتها على علو قيمة الموضوع المخصوص بهذه المواد من مثل نوعية ألياف الورق، وأصالة التسفير المغربي، وتركيب الصفحة.

مخطوطات النحو بالخزانة الحسنية

بالرباط: مقاربة كوديكولوجية

مخطوطات النحو بالخزانة الحسنية بالرباط: مقاربة كوديكولوجية

تحتوي الخزانة الحسنية على حوالي 939 مخطوط في مادة النحو. ونحن نعلم أن النحو كان عنصرا رئيسا في حلقات العلم.. ونلمس ذلك من خلال كثرة الشروح والحواشي والتعاليق التي صنعت لألفية ابن مالك (ت 672هـ)، وأجرومية محمد بن محمد بن داوود بن أجروم الصنهاجي (ت 723هـ)، ومع ذلك، فنحن لن نعدم في هذه المادة مخطوطات جديرة بالانتباه إما لندرتها الخطية والمادية، أو لطرافة موضوعها وأهميته. ومن هذه المخطوطات الطريفة في موضوعها كتاب سيبويه أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر(ت180هـ 796م)، وتوجد منه ثلاث نسخ هي النسخة رقم: 6898، والنسخة رقم: 9106، والنسخة رقم: 11537، وكلها عارية من تاريخ النسخ، ونأمل أن يحصل تحقيق آخر للكتاب يأخذ بعين الاعتبار هذه النسخ، ومنها كتاب "النكت في تفسير كتاب سيبويه" (لأبي الحجاج يوسف بن سليمان المعروف بالأعلم الشنتمري (ت476هـ/ 1084م)، ومنها "الجمل الكبرى في النحو" لأبي إسحاق عبد الرحمان إسحاق الزجاجي (ت337هـ/ 1127م). وأمام هذا الكم من تراثنا في النحو، لسنا مستمرين في اجترار المعلومات المحصلة فيها، وإنما نريد أن نقارب جوانبها المادية عبر دراسة كوديكولوجية، وهذا صميم اقتراحنا في هذا البحث، وسأقسم معالجتي المادية إلى الأبعاد الآتية:

البعد الحفري التقني: وسأتناول ضمن هذا البعد مادة الكتابة، ونظام الطي، وحرود المتن، وتركيب الصفحات، التسفير والترميم، إلخ.

البعد الحفري النسقي: وسأتناول ضمن هذا البعد بداية النص، ونهايته، وحرود المتن، والتملكات، وقيود الشراء، والمقابلات، والعناوين، والترقيم، والعلامات إلخ.

وقبل أن نخوض في هذه المعطيات العلمية في المخطوطات نتحدث في عتبة هذه الدراسة الأركيولوجية، عن انتماءات المخطوطات وقدمها.

انتماءات المخطوطات وقدمها:

للمخطوط رحلة زمنية ومكانية، وقد يكون وعاؤه، وخطه، وإشارات أخرى دلائل مفحمة في هذا الباب. وإنما تكشف لنا المخطوطات المدروسة عينة من النسخ التي تنتمي إلى المغرب الأقصى، أو بلاد شنقيط، أو السودان، أو بلدان أخرى قريبة، وحسبنا أن نقف على بعض الأسفار التي سودت في بلاد السودان ومن ذلك:

"الفتوحات القومية في شرح الجرومية" لأبي العباس بن أحمد بن عمر بن محمد المعروف بأحمد بابا التنبكتي (ت1036-1627م)[1]، "النكت المستجادة في اتحاد الفاعل والمبتدأ في شرط الإفادة" للمؤلف نفسه[2]، ويرجح أن يكون الكتاب مبيضة بخط صاحبها. وذلك لأن نهاية النص قد ورد فيها تاريخ التسويد والتبييض على حد سواء قال: "ووافق الفراغ من تسويدها في عام الثامن والثمانين والتسع مائة، سوى كلام الإمام الراعي، فإنما ألحقته فيما بعد،

---

(1) توجد من الكتاب النسخ الآتية: 4129-4143-6529-75.
36-12099-12113-12239.

(2) رقمه خ.ح: 11260.

والحمد لله أولا وآخرا، وكان الفراغ من كتب نسخة الأصل بعد الزوال يوم الأربعاء التاسع والعشرين من ذي القعدة الحرام عام 999هـ انتهى بحمد الله تعالى"[1]. "مختصر في النحو" لمحمد بن أبي بكر البرزوري، وهو تقييد يشمل أركان النحو وأصوله.

أما بخصوص المخطوطات القديمة ضمن هذه المادة، فقد حصرنا الكتب التي تعود إلى القرن السابع الهجري، وما قبل هذا القرن، فألفينا أن عددها لا يتجاوز الخمس عشرة نسخة تبتدئ بالكتاب لسيبويه (ت180هـ)، ثم "الجمل الكبرى للنحو" للزجاجي (ت337هـ)، ثم كتاب "النكت" للأعلم الشنتمري (ت476هـ)، ثم "ملحة الإعراب" للحرير البصري (ت516هـ)، فـ"الحلل في شرح أبيات الجمل" للبطليوسي (521هـ)، و"إعراب أبيات الجمل" للمؤلف نفسه، ثم "الكافية" لابن الحاجب (ت646هـ)، التي انتسخت في 1001 هجرية، ثم "نهاية الأمل في الجمل" لمحمد بن ناماور بن عبد الملك الخونجي (ت646هـ)، ثم ألفية بن مالك (ت672هـ)، وشرح جمل الزجاجي لابن الصائغ الكناني (ت680هـ)، وكانت نساختها في 24 شعبان عام 891 هجرية، وتكتسي هذه النسخة الأخيرة أهمية فيلولوجية لافتة للنظر، إذ لا يفصل بين وفاة مؤلفها لحظة تبييضها وانتساخها إلا قرنان فقط، في حين أن انتساخ نسخة الكافية المذكورة سابقا يبعد عن تبييضها بأربعة قرون.. وماعدا ذلك فأغلب الكتب المذكورة عارية من اسم الناسخ وتاريخ النسخ.

---

(1) الصفحة الأخيرة من المخطوط خ. ح، 12260

البعد الحفري التقني في مخطوطات النحو:

مادة الكتاب:

نبادر إلى القول إن كل الأوعية المدروسة هي مصنوعة من مادة الورق، إلا أن أحجامها تعكس اختلافا في صناعة الفرخة الأولية، أو أنظمة الطي، فهناك مثلا مقياس نموذجي ملحوظ في المادة المدروسة هو 13× 19سم. وهناك مقياس آخر مختلف هو 18×27سم، وتقترب منه جملة من المقاسات الأخرى من مثل 18. 5×27. 5سم، وهذا يبين لنا أن هذه الاختلافات الطفيفة إنما لحقت بأحجام الورق نتيجة قص الفرخات وتسويتها وترتيبها.. ولكن حين يطال الاختلاف المستويين بشكل واضح، كأن نجد مثلا 16 × 21 سم أو 20 × 28 سم، فإننا نقول إن الأمر إنما مرجعه إلى اختلاف القالب أو اختلاف الطي، فنحن نعرف أن الورق كان يصنع في بلدان مختلفة من العالم الإسلامي، وكان يحصل فيه بعض الاختلاف على مستوى الحجم، والمواد الأولية المتخذة في صناعته. وقد نعثر، في بعض الأحيان، على ورق دخيل من بلاد أوروبا على الرغم من موقف المسلمين سابقا من الورق الرومي، إذ كان يعتبر نجسا والكتابة عليه محرمة، ونعرف هذا الورق إما عن طريق العلامة أو الفيليغران، كما هو الأمر في نسخة من شرح ألفية ابن مالك لأبي زيد عبد الرحمان بن علي بن صالح المكودي[1]، إذ نلاحظ في أوراقها علامة مرشومة تحيل على الصانع تسمى "فيليغران" Filigrane، وإما من الصورة المادية للورق، إذ وجدنا في بعض الأحيان أوراقا معملية حديثة مسطرة بطريقة آلية وخالية من الفيليغران

(1) انظر المخطوط، خ. ح، 9881.

مثل نسخة من "تسهيل الدروس النحوية على الخلاصة الألفية" لمحمد بن عبد المجيد بن عبد الرحمان أقصبي[1].

ونلاحظ من جهة أخرى أن الورق المحلي المستعمل في المادة المدروسة قد ساءت حالته، فاعترته الخروم، والتآكلات، والرطوبة، وذلك بنسبة كبيرة. ونحن لا نستطيع أن نحصر المخطوطات المخرمة لكثرتها، أما المخطوطات التي اعترتها الرطوبة فنذكر منها نسخة من "تعليق على شرح خلاصة بن مالك للمكودي والبحث معه فيما طرأ له من السهو" لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الرحمان ابن مجبر المساري[2] (ت985هـ)، و"تمرين الطلاب في صناعة الإعراب" لخالد بن عبد الله الأزهري[3]، ونسخة من كتاب "حل الألفاظ الجرومية" لأبي العباس أحمد بن محمد البجائي المعروف بابن كحيل[4] (ت869هـ). ونلاحظ أن هناك مجموعة من الكتب القريبة العهد، ولكن سريعة الاهتراء والاصفرار والتآكل من مثل نسخة من مجموع "تقييد على قول ابن مالك في ألفيته" لمحمد بن مسعود بن أحمد الطرنباطي الأموي العثماني (ت1214هـ)، ونسخة من "الدرة النحوية في شرح الجرومية" لمحمد بن أحمد يعلى الشريف الحسني[5] (ت723هـ)، وتفسير ذلك إنما مرده إلى نوعية مكونات الورق، إذ يلاحظ من خلال صلابة هذا الأخير، وتكسره، وسرعة

(1) انظر المخطوط، خ. ح، 7048.
(2) انظر المخطوط خ. ح، 3818
(3) انظر المخطوط خ. ح، 5358.
(4) انظر المخطوط خ. ح، 13464.
(5) انظر المخطوط خ. ح، 6531.

اصفراره، واهترائه، أن مكوناته الأصلية هي الخشب، وهي مادة لا يتجاوز فيها السيلولوز 50٪ في حين أن الورق المصنوع من الكتان والقطن والقنب قد تصل فيه مواد السيلولوز إلى نسبة 100٪، الأمر الذي يفسر لنا صمود مجموعة من المخطوطات عبر قرون عديدة، ويسهم المداد في الحفاظ على نوعية الورق إذا كانت نسبة الحموضة فيه قليلة، أما إذا حصل العكس فسيؤدي ذلك حتما إلى احتراق مادة الكتابة، وتحصل هناك تجويفات في أماكن الحبر وانكسار في المادة، خاصة إذا كانت ألياف هذه الأخيرة من الخشب، ومثال ذلك في المادة المدروسة: "نسخة من تمرين الطلاب في صناعة الإعراب" لخالد بن عبد الله الأزهري[1](ت. 905هـ)، ونسخة من "الجواهر النفيسة في المسموعة والمقيسة" لأحمد بن مبارك بن محمد السجلماسي[2] (ت 1155)، حيث يلاحظ فيها تكسرا في الأوراق واحتراقا في خطوط الكتابة نتيجة حموضة في الحبر.

الطي والتركيب الصفحات:

نلاحظ في المادة المدروسة سيطرة الكراريس المفككة، ويحصل التفكك أصلا في قفا المخطوط نتيجة عدم إتقان صنعة التسفير التي هي من الصنائع الجوهرية في الوراقة. والتفكك لا يترك لنا مجالا لمعرفة نوعية الكراسة، فالكراسة هي في أصلها فرخة واحدة يتم طيها عددا من الطيات، ويتم تفكيكها أو قطعها من الأماكن الملتحمة لكي نحصل على نواة المخطوط، ولا يوجد في أدبيات الوراقة الإسلامية ما يشفي الغليل في هذا الباب، وإنما ذلك

(1) انظر المخطوط خ.ح، 2728.

(2) انظر المخطوط خ.ح، 9697

من عناصر المنهج الكوديكولوجي[1] الحديث.

وعموما نلاحظ تواتر الخماسيات في المادة المدروسة، وأما ما يتعلق بتركيب الصفحات، فنحن نلاحظ تدرجا في أحجام الهوامش من الطرة الداخلية إلى الطرق الفوقانية. كما أننا نجد في جميع المادة المدروسة درجا واحدا للكتابة، وليس هناك أي استثناء في هذا الأمر، ويكون هذا الدرج في الغالب مؤطرا بالمسطرة التي غالبا ما تزول آثارها لحظة معاينة المخطوط، ولكن التناسق الذي يحصل في المساحة المكتوبة، والاتساق الذي يوجد في بدايات السطور، وبين السطور ذاتها يؤكد لنا أن هذه أمور لا يمكن أن تتم دون أصواء ترشد الناسخ في مهنته، ويحصل أن يكون هذا الدرج مؤطرا بالمداد أو مجدولا بحسب لغة المنوني رحمه الله.

وهناك أمثلة قليلة في هذا الباب من مثل نسخة من "الأنوار السنية والأزهار البديعية البهية في شرح خطبة الألفية" لمحمد بن محمد بن حمدون بناني الفاسي[2] (ت1140هـ)، حيث نجد أن الأدراج مجدولة بالأحمر. وهناك نسخة من "أوضح المسالك" لعبد الله بن يوسف بن هشام الشافعي[3]، ونسخة من "الدرة النحوية في شرح الجرومية" لمحمد بن أحمد يعلى الشريف الحسني[4]، ونسخة من "تمرين الطلاب في صناعة الإعراب" لخالد بن عبد الله

---

(1) خصص "ليون جلسان" léon Gilissen "تمهيد لعلم المخطوطات" للمسائل الحفرية الصميمة في دراسة المخطوطات.

(2) انظر المخطوط خ. ح، 5390.

(3) انظر المخطوط خ. ح، 6531.

(4) انظر المخطوط خ. ح، 6531.

الأزهري[1] ونسخ أخرى يضيق المجال عن ذكرها.

الثقوب والتسفير:

استعملت الثقوب أصلا، في الوراقة، لتركيب الصفحات، والمساحة المكتوبة والتزويق، والتسفير. فنحن نلاحظ في قعر الهامش في أغلب المادة المدروسة ثقوبا استعملت في شد الكراريس إلى بعضها. كما نلاحظ الثقوب داخل المخطوط في بعض الأحيان، وغالبا ما كانت تستعمل لتركيب الصفحات كما هو الحال في المخطوط خ. ح، 5612، وهو نسخة من شرح نظم الأجرومية للطالب بن العربي الآبار لمحفوظ بن سعيد بن مسعود الرسموكي (كان حيا 1283). ففي إمعان النظر في عينة من النسخ، لاحظ آثار أربع ثقوب بارزة في الأركان الأربعة للمساحة المكتوبة أو درج الكتابة. وعموما نقول إن هذا المبحث مازال في حاجة إلى تدقيق ودراسات متخصصة. أما ما يتعلق بالتسفير فنبادر إلى القول في البدء إن هذا المبحث هو أوفر حظا في الدراسة من المباحث الأخرى المرتبطة بالوراقة بمفهومها الخلدوني الواسع، ولا نعدم في التاريخ كتبا مفيدة في هذه الصنعة[2].

وأما في مادتنا المدروسة، فنلاحظ ما يلي:

1) **مخطوطات مسفرة تسفيرا أصليا:** وغالبا ما تكون حالتها سيئة ومتدهورة وأرضية الغلاف بنية، وترنجته لوزية أصلية، وتكون هناك رسوم زخرفية توريقية في الأركان، وغالبا ما يحصل هناك تفكك الغلاف عن مجموع

---

(1) انظر المخطوط خ. ح، 9951.

(2) ينظر بهذا الخصوص: " التيسير في صناعة التفسير" لبكر إبراهيم الإشبيلي، مدريد 1960 والسفياني "صناعة تسفير الكتب وحل الذهب"، فاس 1919م.

الكراريس، وتآكل في البرشمان المدور الذي يقوي قفا المخطوط، ومثال ذلك: نسخة من "جمع الغريب في ترتيب آي مغنى اللبيب" لأبي عبد الله محمد بن قاسم الأنصاري المعروف بابن الرصاع.

2) **مخطوطات مسفرة تسفيرا غير أصلي**: ولا نعاين في هذه المجموعة أصالة في تزويق جلدة الغلاف، بل قد تكون خالية من التزويق وغير متدهورة، وغالبا ما تكون الكراريس في هذه الحالة مخاطة بشكل بدائي واضح، ولا يكون هناك تقبيب في قفا المخطوط، بل يكون مسطحا، ومثال ذلك نسخة من "أوضح المسالك إلى ألفية بن مالك" لجمال الدين أبي محمد عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الشافعي[1] (ت761هـ/ 1360م).

3) مخطوطات غير مسفرة: وتوجد منها عينة صغيرة في المادة المدروسة، ومثال ذلك نسخة من "الدرة النحوية في شرح الجرومية" لمحمد بن أحمد يعلى الشريف الحسني[2] (ت723هـ/ 1323م).

الترميم:

ليس هناك أي مخطوط مرمم بشكل علمي حديث ضمن مادة النحو بالشكل الذي رممت به مثلا نسخة "المقتبس". لابن حيان الأندلسي في مركز الترميم بالخزانة العامة بالرباط، وفي المقابل نلاحظ ترميما بدائيا يعكس رحلة المخطوط عبر مقرات مكتبات بسيطة. ويهيمن على نوعية الترميم في المادة المدروسة صنفان:

1) **الترميم عبر الإلصاق**: وصورة هذا الترميم أن نجد الأماكن المتآكلة أو

(1) انظر المخطوط خ. ح، 5324.

(2) انظر المخطوط خ. ح، 9302.

المخرمة قد ألصقت بها قطع ورقية بشكل يذهب معه التآكل أو الخرم، وهو في صورته العامة ترقيع يحصل في المخطوط، ومثال ذلك ما وقع في نسخة من "روض الإعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام" لأبي عبد الله بن علي بن الأزرق الأبي الأصبحي[1] (896ت)، وما وقع في المجموع خ. ح، 12247 الذي يضم رسالة في النحو لمحمد بن عمر بن عثمان الفشتالي.

2) **الترميم بمادة البلاستيك:** وصورة هذا الترميم أن تشد الورقة المهترئة أو المتآكلة بغلاف بلاستكي بشكل يجنب المادة من التساقط أو التفتت، ويدخلها فضاء معزولا عن الأوكسجين، ومثال هذا الترميم نسخة من شرح القصيدة اللغوية في المسائل النحوية لأبي سعيد فرج بن قاسم بن أحمد الثعلبي الغرناطي[2] (ت783هـ).

النساخة:

يراد بالنساخة في علم المخطوطات كل ما كتب في المخطوطات وليس من صميم المتن بمفهومه الدقيق، ويقابلها في اللغة الفرنسية مصطلح transcription[3]، وأعتقد أن هذا اللفظ هو مصطلح إجرائي في علم المخطوطات[4]، وإنما يراد به في الشق الثاني من علم المخطوطات بدايات

---

(1) انظر المخطوط خ. ح، 2567.

(2) انظر المخطوط خ. ح، 7579.

(3) تنظم رسالتنا لنيل دبلوم الدراسات العليا في علم المخطوطات (مقدمة في الكوديكولوجيا)، ص: 41، الرباط: 1997.

(4) قدم البعد المنهجي لمصطلح transcription الباحث البلجيكي"جاك لومير" في كتابه: Introduction à la codicologie الذي نقلناه إلى العربية ضمن رسالة جامعية نوقشت بالرباط سنة: 1997م.

النص، ونهاياته، وحرود المتن، والوقفيات، والتملكات، والسماعات، أنظمة الترقيم، وتصحيحات المصححين، والقراءات، والإجازات، والشكل المادي للخط، وما شابه ذلك من معطيات كتابية كثيرة نعد منها ولا نعددها.

ويجب أن نشير في البداية إلى أن المادة المدروسة كتبت في عمومها بخط مغربي مبسوط عادي، من منطلق أن الخط المغربي يتضمن أنواعا كثيرة منها الخط الكوفي المغربي، والثلث المغربي، أو المشرقي المتمغرب، والمبسوط أو المستقيم والمجوهر، والمسند أو الزمامي، والخط المغربي المدمج، ثم هناك الخط الجزائري، والخط التونسي، والخط السوداني، أو السينغالي.. ويتميز هذا الخط بغلظ حروفه وبساطتها.

ونلاحظ ضمن الخطوط المغربية المتمايزة في بعض الأحيان خطوطا نزعم أنها ذات انتماءات سودانية من خلال حروفها الثخينة والبسيطة، وليس لدينا ما يؤكد هذا الزعم لتجانس هذه المواصفات في كل الخطوط الصحراوية. ومثال الخط الذي كتبت به نسخة من "مبرز القواعد الإعرابية من القصيدة المجرادية" لعلي بن محمد بن أحمد بن محمد الرسموكي الجزولي[1]، ونسخة من "التصريح بمضمون التوضيح" لخالد بن عبد الله الأزهري[2] (ت. 905)، ونسخة من "الفتوحات القومية في شرح الجرومية" لأحمد بن أحمد تقيت[3] بن محمد بن الحاج أحمد تقيت (ت. 1130هـ)، ونسخة أخرى من الكتاب نفسه[4]، وهناك صنف آخر من الخطوط متميز عن الخطوط المغربية، ونلاحظ

(1) انظر المخطوط خ. ح، 9635.
(2) انظر المخطوط خ. ح، 12966.
(3) انظر المخطوط خ. ح، 7536.
(4) انظر المخطوط خ. ح، 12099.

أن عدده ضمن المادة المدروسة قليل جدا، ويتعلق الأمر بالخط المشرقي، ومثاله نسخة من "تحفة الغريب في الكلام عن مغني اللبيب" لأبي بكر المخزومي الدماميني[1]، ونسخ من "التصريح بمضمون التوضيح" لخالد بن عبد الله الأزهري[2]، ونسخة من "حاشية على توضيح الألفية" لابن هشام الأنصاري لناصر الدين محمد بن حسن اللقاني المالكي[3] (ت. 957هـ)، ونسخة من "حاشية على شرح الأشعري على ألفية ابن مالك" لمحمد بن علي الصباني[4] (ت. 1202هـ)، ونسخة من "حاشية على شرح الكافية" لأبي الحسن علي بن محمد الجرجاني المعروف بالسيد الشريف[5] (ت. 816هـ)، ومخطوطات الخزانة الحسنية رقم: 11991 و3025 و3973 و6962 و7769 و6784 ونسخ أخرى وهي في عمومها مكتوبة بالخط المشرقي النسخي.

أما بخصوص بدايات النصوص ونهاياتها، فيجب أن نميز بين بداية النص بمفهومه الدقيق والبداية الحقيقية للنص، فبداية النص متشابهة أو تكاد تتشابه إلا في طرق الصياغة، إذ إنها تضم عموما الحمدلة، والتصلية، والتسليم أو التسبيح، ثم يبدأ النص عادة بعد قوله "أما بعد" و"بداية" النص الحقيقية هي العلامة الأولية الكبرى للكتاب. أما نهاية النص Explicit هي الصياغة الأخيرة التي تأتي مباشرة قبل حرد المتن أو التختيمة، ومثال ذلك "بداية النص" و"نهايته" في "الفتوحات القيومية" لأحمد بابا التبكتي خ. ح، 4129،

(1) انظر المخطوط خ. ح، 1655.
(2) انظر المخطوط خ. ح، 6856-6818.
(3) انظر المخطوط خ. ح، 12222.
(4) انظر المخطوط خ. ح، 4829.
(5) انظر المخطوط خ. ح، 2345.

والتي هي كالآتي:

بداية النص:

"سبحان الله المنزه كلامه عن اللفظ بالحرف في المقال" وبعد فيقول العبد الفقير. هذه حواش وضعتها على الجرومية المباركة:

نهاية النص:

منهـــا إذا قبـــل أبـــو عـــذرها ولیـــت شـــعري وأقـــام الـــصلاة

ومن معطيات الناسخة الأخرى تغيير الكتابة في العناوين ورؤوس الفِقْرات، إذ غالبا ما نجد ألوانا مغايرة، أو استعمال الخطوط الثخينة، أو استعمال الحمرة، أو الخضرة لبعض العناوين، أو الكلمات المميزة، ومثال ذلك المخطوطان 4264 و8929، وهما نسختان من ألفية ابن مالك، والمخطوطان 13561 و13434، وهما نسختان من "بداية التعريف بشرح شواهد سيدي الشريف". وتغيير ألوان الحبر، والتشديد على بعض الخطوط. هي أمور تعكس مراهنة الوراق على أن يعطي معلومات أخرى عبر أشكال تواصلية أخرى.

وهناك في كل المخطوطات المدروسة حرود المتن، أو التختيمات، وهي تلك الصياغات التي توجد في آخر المخطوط على شكل مثلث؛ وتحتوي على الحمدلة والتصلية، واسم الناسخ، وتاريخ النسخ، والدعاء للناسخ ببعض الأدعية. ويجب أن نشير إلى أن أغلب النساخ المذكورين في حرود المتن هم نساخ مغمورون[1]،

(1) يمكن الإشارة بهذا الصدد إلى أن العمل الذي قام به المنوني رحمه الله عن تاريخ الوراقة المغربية يمكن أن يوسع بالاستفادة من الفهارس الجديدة التي توجد في المكتبات العتيقة بالمغرب.

وهو ما يبرر بعض الأخطاء الإملائية التي قد توجد في الكتابة، كما أشير إلى أن هناك حوالي 450 من 939 حرد المتن ليس فيها ذكر لاسم الناسخ وتاريخ النسخ، ويرجع ذلك لأسباب أخلاقية، ومهنية، وثقافية.

ومن ضمن عناصر النساخة أيضا المقابلة، ونحن نعرف حرص أجدادنا على مقابلة المكتوب حتى إنهم كانوا يجترون المقولة الشهيرة "اكتب وقابل وإلا اطرح في المزابل"، ويتوخون من وراء المقابلة ضبط النسخة، وإضفاء مسحة من الوثوقية عليها. ويشار إلى المقابلة عادة بعبارة صريحة في هذا الباب، مثل العبارة التي توجد في آخر نسخة "الكافية الشافية" لجمال الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الطائي[1] (ت672هـ)، حيث كتب ما يلي: "تمت مقابلتها بأصل جيد عشية الاثنين 1114هـ".

ومن عناصر النساخة أيضا التملك، ويوجد عادة في الصفحة الأولى من المخطوط ومن ذلك التملك الذي يوجد في الصفحة الأولى من نسخة "المقدمة الجزولية في النحو" لأبي موسى عيسى بن العزيز الجزولي المراكشي[2] (ت610هـ)، والتملكان اللذان يوجدان في الصفحة الأولى من نسخة من "المنصف من الكلام على مغنى ابن هشام" لتقي الدين أبي الحسني أحمد بن محمد الشمني[3] (ت872هـ)، أحدهما باسم الطاهر بن عبد الرحمان الحسني، والآخر باسم أبي يعزى بن مولاي الطاهر الحسني، وقد يكون التملك في آخر الصفحة مثل التملكين اللذين يوجدان في آخر الصفحة من نسخة" المهمات

(1) انظر المخطوط خ. ح، 4383.

(2) انظر المخطوط خ. ح، 4784.

(3) انظر المخطوط خ. ح، 9643.

الفريدة في شرح الفريدة "لأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمان بن زكري[1] (ت1144هـ-1731م).

ومن ضمن الهوامش التقنية المرتبطة أيضا بالنساخة نظام الترقيم، ونشير إلى أن نظام الترقيم في أغلب المادة المدروسة يعتمد على التعقيبة Réclame أو الوصلة أو الرقاص، وهناك في المادة المدروسة ضربان من التعقيبة: التعقيبة المائلة مثل ما يوجد في المخطوطات خ. ح، 13476، 12034، 6488، 4383، 11679، 12056، 5602، 6195، 7663.. إلخ. والتعقيبة الأفقية مثل ما يوجد في المخطوطات خ. ح 5036، 2729، 7718، 12372، 13371، 10462، 10227.. وإلى جانب هذين الضربين هناك ضربان آخران نادران، ضرب يزاوج بين الأفقية والمائلة مثلما يوجد في المخطوطات خ. ح، 6529، 2562، 9702، 8316، 2001، 9106. إلخ. وضرب عمودي مثلما يوجد في المخطوط خ. ح 12239، وفي المقابل هناك مخطوطات تعد على الأصابع غابت فيها التعقيبة، ويرجع هذا الأمر في نظرنا لسببين:

1) التقريض والتآكل الذي تتعرض له المخطوطات عبر التاريخ مما يؤدي إلى انحلال الأوراق في الزوايا والأركان، وزوال كل التقاييد الموجودة في الأماكن المقرضة، ومن ضمن ذلك توجد التعقيبة، ومثال ذلك غياب التعقيبة في نسخة من "كافي الأريب على مغني اللبيب" لمؤلف غير مذكور[2].

2) حداثة العهد والتمرد على بعض الصور التقليدية للمخطوط ، وينحصر هذا الأمر على بعض المخطوطات القرن 14 هجري ، مثلما هو الأمر في نسخة

(1) انظر المخطوط خ. ح، 11541.

(2) انظر المخطوط خ. ح، 12101.

حديثة العهد من" تعليق على المنحة الوفية التي هي لخلاصة ابن مالك نصفية" لمحمد بن عبد المجيد أقصبي[1] (ت1364هـ).

ونشير في نهاية هذه الدراسة إلى أن أغلب المادة المدروسة هي نسخ تفصلها عن الأصول عقود من الزمن، يجب أن تعرض على قواعد تاريخ النصوص ونقدها إذا توخينا إخراجها بصورة علمية دقيقة. ومع ذلك، فنحن لانعدم بعض المبيضات القليلة المرتبطة مباشرة بالمصدر، مثلما هو الأمر في نسخة من "مفتاح الأفئدة لمعاني نظم الآجرومية" لمحفوظ بن سعيد بن مسعود الرسموكي[2] (كان حيا 1283هـ)، إذ فرغ من تبييضها عام 1283هـ.

(1) انظر المخطوط خ. ح، 9542.

(2) انظر المخطوط خ. ح، 41.

مخطوطات المقري بالخزانة الحسنية

بالرباط: دراسة في بدايات النصوص Incipits

مخطوطات المقري بالخزانة الحسنية بالرباط، دراسة في بدايات النصوص Incipits

توجد من كتب المقري المخطوطة بالخزانة الحسنية بالرباط مادة وافرة، منها ثلاث عشرة نسخة من كتابه الشهير: "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب"[1]، وتوجد في أغلبها في أسفار تصل إلى حدود العشرة، وأغلب هذه المادة عتيقة، ذات أسفار مرممة، أو مستبدلة، وأوراق متآكلة، وجرم متوسط. ومن كتبه أيضا بالخزانة المذكورة أربع نسخ من "كنز الأسرار ومعدن الأنوار في آل بيت النبي المختار"[2]، وهي نسخ تامة، يعروها شيء من الخرم، والتآكل، وأثر الرطوبة. وضمنها توجد نسخة معنونة بـ"زهرة الأخبار في كنز الأسرار ومعدن الأنوار في تعريف نسب آل بيت النبي المختار"، وهي نسخة متآكلة وخطها رديء، ونسخة معنونة بـ"الروض المعطار وكتاب الأنوار في نسب آل النبي المختار"، وهي تامة ومقبولة في القراءة. وننبه على أن هذه العناوين الأخيرة، (كنز الأسرار، وزهرة الأخبار، والروض المعطار) هي عناوين لكتاب واحد، وهذه من مشاكل تأسيم الكتاب العربي التي تعتبر واحدة من مشاكل تحقيق التراث. ونسختان من "روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس[3]"، وتعتبر النسخة رقم 220 منهما زبدة ما يمكن أن نقدمه في

(1) النسخة رقم 8253 و8506و 5859 و1672 و9158 و10516 و8465 و6273 و9171 و7820 و8524 و9814 و12860

(2) النسخ رقم 6637

(1) النسختان رقم 220و 8875

هذا الباب، إذ كتبت بخط المؤلف نفسه[1]، والنسختان قديمتان لا يعدمهما ترميم وتآكل. ومن كتبه أيضا عشر نسخ من "أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض"[2]، وهي ناقصة في أغلبها يعدمها السفر الثاني، ومتآكلة. ومن كتبه أيضا بالخزانة الحسنية نسخة من كتابه الهام: "إتحاف المغرم المغرى بتكميل شرح الصغرى"[3]. وبها أيضا أربع نسخ من كتابه العقدي الفريد في بابه: "إضاءة الدجنة عن عقائد أهل السنة"[4].

ونحن لن نقتات مما يوجد في هذه الكتب من مادة تاريخية، وأدبية، وحتى سياسية، فهذا أمر أثخن بحثا ودراسة، وصنفت فيه الرسائل والأبحاث، وإنما قصدنا أن نتناول منها مبحثا، من علم المخطوطات، غميسا يبقينا في أثرية هذه المادة بالرغم من أنها مطبوعة متداولة، ويشعرنا بإمكانية الاهتمام بالوعاء بدل المحتوى. إنه "بداية النص" Incipit أو العبارة الأولى التي يبدأ بها الكتاب العربي الإسلامي، علما أن هذا الكتاب كان يتخذ من هذه البداية العلوان الأصلي الذي يثبته أمام الاختراق والسرقة، إذ نادرا ما كنا نجد العنوان

---

(1) هذا ما اقتنعنا به من خلال معاينة مادة الكتابة، ونوعية الخط، وآثار أركيولوجية أخرى، وقد قام الأستاذ عبد الوهاب بنمنصور بمقارنة هذه النسخة في خطها بمجموعة من الوثائق والمكتوبات للمقري نفسه، فتبين أنها تشتبه بها تماما في الخط، مما يؤكد نسبتها إلى المقري. تنظر: مقدمة عبد الوهاب بن منصور؛ "روضة الآس. "المطبعة الملكية ط: 2. 1403-1983 ص: كد

(2) النسخ رقم 784 و3084 و3085 و9055 و7789 و3101 و9135 و11649 و794 و9198

(3) مخطوط محفوظ في الخزانة الحسنية بالرباط، رقم "3544"، ضمن مجموع، من الورقة1 أ إلى 76 أ.

(4) أرقامها بالخزانة هي الآتي: 614 و7193 و12008 و12467.

الأصلي للكتاب مكتوبا في الصفحة الأولى كما هو الأمر بالنسبة للمطبوعات. وبداية النص هو مبحث هام في علم المخطوطات، شأنه شأن مجموعة من المباحث النساخية الأخرى مثل حرد المتن، ونهاية النص، والتملكات، والتحبيسات، والعناوين الكبرى، والطرر النصية، وغير هذا كثير، مما سنعرض له في باب حديثنا عن علم المخطوطات. فما هو أولا هذا العنصر في مفهومه الخاص، وفي مفهومه العام؛ أي في إطار علم المخطوطات؟

مفهوم (بداية النص):

إنه الكلمات الأولى منه[1]، ويقابله بالفرنسية Incipit، وبالإنجليزية Initia أو[2]. Incipit. وهناك في أدبيات المخطوط مصطلح "بداية النص الأصلي "Incipit vrai[3]"، ويقصد به الكلمات الأولى من متن الكتاب أي أن هذا المصطلح الأخير يعرض عن البسملة والحمدلة وما لف لفهما من ديباجة معروفة في المخطوط العربي، ويرصد البداية الدقيقة للكتاب التي غالبا ما تكون بعد عبارة "أما بعد". أما بداية النص فهو يتعقب النص من بدايته، ويقابله نهاية النص Explicit أو الكلمات الأخيرة من المتن أو العبارة الدالة على نهاية المتن[4] ويجب أن نميز أيضا بين نهاية النص، وحرد المتن، أي الهامش الموجود في آخر النص، والمتعلق بالنساخة وبياناتها، والذي يكون في غالب

---

(1) ينظر: معجم مصطلحات المخطوط العربي قاموس كوديكولوجي. أحمد شوقي بنبين ومصطفى طوبي، منشورات الخزانة الحسنية بالرباط، الطبعة الثالثة: 2005 م ص: 54

(2) the arabic manuscript tradition, Adam Gacek, brill, 2001 p ;9

(3) المرجع السابق ص: 55

(4) المرجع السابق ص: 368

الأحيان على شكل مثلث، حتى في الطبعات الاستهلالية Incunables[1]، التي راعت العرف المعمول به في صناعة السفر العربي الإسلامي.

وهناك أيضا ما يسمى بالبداية الصوة للنص[2] Incipit-repère، وهي الكلمات أو العبارة التي تمكن من تمييز نص معين عن النصوص الأخرى، وسنرى أن هذا الوعي وارد في تعريفنا لبداية النص. ويجب أن نذكر أن دراسة "بداية النص" في صورتها الكوديكولوجية إنما يقصد منها أصلا الانطلاق من قناعة منهجية تركز على مادية المخطوط وأثريته باعتبار أن مباحث علم المخطوط Codicologie واسعة كلها تصب في هذا الاتجاه، أي الانطلاق من مسلمة أن المخطوط ليس فقط معلومات قد تكون مسكوكة في غالب الأحيان، وإنما هو، أساسا، وعاء أثري متميز في معطياته المادية، وفي طريقة تسفيره، وزخرفته، ومكونات مادته، ونموذج كراريسه، وخصوصيات ترتيبه، وتركيب صفحاته، وهكذا. إذ العبرة في الوعاء وليس في المحتوى. ودراسة هذه المعطيات النساخية إنما هي سبيل لدراسة أركيولوجية نسقية. إذ لن ننظر إلى بداية النص من حيث معلوماته، وإنما من حيث بناؤه وطريقة صياغته. وبداية النص هو عنصر ضمن مباحث علم المخطوطات.

---

(1) المرجع السابق ص: 128

(2) Vocabulaire codicologique, Denis Muzerelle, éditions CEMI 1985 p 432

جرد بدايات النصوص في النسخ المدروسة:

يقول أحمد بن محمد المقري في بداية النسخة 784من " أزهار الرياض". ما يلي: "الحمد لله الذي أعلى مراتب العلماء الأعلام وزكى منهم العقول الراجحة والأحلام ومنحهم مآثر تقصر عن جمعها المحابر والأقلام ومفاخر طارت كل مطار وجعل معالمهم زاهرة زاهية (..) أما بعد:

فيقـــــول أحمـــــد ذو القـــــصـــو ر المقـــــــري إذا انتـــــــســـب

جـــــبر المهـــــيمن صدعـــــــه ووقـــــاه سيء مـــــا اكتـــــســـب

وحبـــــاه منحـــــة مومـــــــن محـــض العبـــادة واحتـــسـب. "[1]

وهذه البداية هي ما يوجد في كل نسخ هذا الكتاب مع شيء من الانمحاء والتآكل في النسخ الأخرى[2]، والاختلافات في رسم الحروف، واستغلال المساحة المكتوبة مما سنذكره في بابه. ويقول في بداية النسخة 11328 من الروض المعطار: (الحمد لله المنفرد بوجوب الوحدانية في الذات والصفات والأفعال. الذي تنزهه عن الشريك والشبيه والأمثال سبحانه وتعالى، الرب الكبير المتعال ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ونشهد أن سيدنا ومولانا محمدا عبده ورسوله ﷺ وسميته الروض المعطار وكتاب الأنوار في نسب آل النبي المختار ﷺ[3]، وهذه البداية هي نفسها التي نقف عليها في نسخة "زهرة الأخبار"[4]، وفي

(1) تنظر بداية النص في الصفحة الأولى من النسخة رقم: 784.

(2) تنظر مثلا النسخة 3085 9055 و3101.

(3) تنظر بداية النسخة رقم 11328.

(4) تنظر بداية النصوص في النسخة رقم1220/ م.

نسختي "كنز الأسرار"[1]، مع اختلافات مادية مما سنذكر لاحقا. ويقول في بداية النسخة 220 من "روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس"، وهي نسخة مبتورة الأول، ومتآكلة، ولكنها قيمة جدا بحكم أن الذي كتبها هو المقري نفسه. ولعل نظرة سريعة على مادتها الورقية المتآكلة، وكتابتها المائلة إلى بساطة الخط المغربي الفاسي، والأندلسي المتمغرب، تظهر فعلا أنها تعود إلى القرن الحادي عشر الهجري-: "لم يسبقوا إليه. فإذا فرغوا من ذلك كله دعوا كلهم لمولانا نصره الله. ثم يشرع الفقهاء والكتاب من أهل حضرته نصره الله (...) قصائد قد اخترعوها في مدح مولانا محمد ﷺ[2]".

ويقول في بداية النسخة المشرقية من "نفح الطيب"[3]: "يقول العبد الفقير الذليل المضطر الحقير. من هو صالح الأعمال عري. أحمد بن محمد الشهير بالمقري. المغربي المالكي الأشعري أصلح الله حاله وجعل في مرضاته حله وترحاله، ومحى[4] بغيث الطاعة والرضوان أمحاله. وأنجح ببلوغ آماله انتحاءه و(..)[5]، (..) وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذي ابتدأ الخلق من غير مثال وبرا". ويقول في بداية النسخة رقم 3544 من كتابه "إتحاف المغرم المغرى بتكميل شرح الصغرى": الحمد لله الواحد الأحد المانح المانع الفرد الصمد الذي كل شيء له آية تدل على أنه الصانع والصلاة والسلام على

(1) تنظر بداية النص في النسختين 6637و875/ م.

(2) تنظر الصفحات الأولى من النسخة رقم 220 وقد كان كتبها المقري نفسه

(3) تنظر للصفحتان الأوليتان من النسخة رقم 8253 المكتوبة بخط مشرقي نسخي

(4) هكذا مكتوبة في النسخة المشرقية، والصواب: محا.

(5) الكلمة غير مقروءة في هذه النسخة وفي النسخ الأخرى "وانتحاله"

مولانا محمد بن عبد الله الذي قام على سرحة التوحيد وغصن نبوته اليانع وعلى آله وأصحابه الذين جذعوا بسيوف حججهم أنوف الكفر فهو لها خانع، وبعد فيقول العبد الفقير إلى رحمة الله أحمد بن محمد المقري. وسميته بـ"إتحاف المغرم المغرى بتكميل شرح الصغرى". ويقول في بداية النسخة 614 من "إضاءة الدجنة. ":

" يقـــول أحمـــد الفقـــير المقـــري المغـــربي المـــالكي الأشـــعري

الحمـــد لله الـــذي توحيـــده أجـــل مـــا اعتنـــى بـــه عبيـــده. "

البنية الحفرية للبدايات:

إنها بدايات نصية كسائر البدايات المتعارف عليها في المخطوطات. إذ عادة ما يبدأ المصنف العربي المسلم بالبسملة، والحمدلة، والتصلية على الرسول ﷺ، وتأسيم المؤلف والدخول إلى الموضوع المعني بعد عبارة "أما بعد". وهو عرف يشتبه في البناء العام، إلا أنه يختلف في الجزئيات. وتأتي هذه البدايات في مستهل النص، وعادة ما تكون في وسط سرحولة مزخرفة كما هو الأمر من النسخة: 5859 من "نفح الطيب" أو النسخة: 1672 من الكتاب نفسه، أو النسخة: 9055 من أزهار الرياض. أو تكتب البداية بلون مخالف للون النص مثل الأحمر مثلا كما هو الأمر بالنسبة للنسخة: 11328 من "الروض المعطار. " أو النسخة784 من "أزهار الرياض في أخبار عياض"[1].

ثم إن هذه البداية عادة ما تحيل إلى الكتاب الواحد. إذ إن طريقة التعبير التي يختارها المؤلف لكتاب من كتبه تنوب عن مميزات الطبعة الواحدة. أو ما

(1) تنظر بداية النسختين 11328 و784

كان يسمى بالإبرازة[1]. فنحن مثلا في عودتنا إلى بداية نص" الروض المعطار وكتاب الأنوار"، وبداية نص" كنز الأسرار ومعدن الأنوار"وبداية نص "زهرة الأخبار في كنز الأسرار" ألفينا أن الأمر يتعلق بكتاب واحد. وإن كان المفهرسون قد فرقوا بين هذه الكتب في العناوين معتقدين أنها كتب متعددة للكتاب الواحد[2]. فبداية النص في هذه العناوين كلها هي: (الحمد لله المنفرد بوجوب الوحدانية في الذات والصفات والأفعال الذي تنزهه عن الشريك والشبيه والنظير والمثال). ولعل هذا يعود بنا إلى إحدى أهم المشاكل في تحقيق التراث، وهي احتمال تعدد عنوان الكتاب الواحد للمؤلف الواحد. وقد يكون المؤلف نفسه سببا في هذا التنوع. فنحن نجد مثلا أن كتاب المقري "روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس " قد أطلق عليه أيضا روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته في الرحلة إلى الحضرتين مراكش وفاس"، وسمي أيضا: "الروضة العاطرة الأنفاس فيمن لقيت بمراكش وفاس". وتكون بداية النص هي الملجأ الناجع أمام المفهرس وأمام المحقق وحتى أمام الدارس لضبط أصالة الكتاب.

إن بداية النصوص أشبه ما يكون بصك الوثوقية لكتاب بعينه أو الختم الخاص الذي يجعل الكتاب مختلفا عن كتب المؤلف الأخرى، (نلاحظ مثلا أن بداية النص في "كنز الأسرار" لا تشبه مع بداية نص"نفح الطيب" أو "روضة الآس"). وعن كل الكتب الأخرى التي تصنع في بلدان العالم الإسلامي. وهذا هو السبب الذي جعل الوراقين يعنون عناية بالغة ببداية النص،

(1) المرة التي يظهر أو يبرز فيها الكتاب، وهي تطابق ما نسميه في عصرنا الطبعة.

(2) تنظر فهارس الخزانة الحسنية بالرباط، ص: 604و641و875.

واضعين لها سرلوحات[1] غاية في الزخرفة النباتية أو الهندسية.

ونقول، بخصوص الخصائص المادية لهذه البدايات، إنها في أغلبها قد كتبت على مادة ضعيفة من نسبة السيلولوز الأمر الذي أدى إلى سرعة تدهور الورق كما هو الأمر في المخطوط 220 من "روضة الآس". والنسخة 9135 من "أزهار الرياض". والنسخ 5859 و1672 و9158 من "نفح الطيب".

وتوجد بعض الاستثناءات التي أبقت على سلامة البداية ومقروئيتها كما هو الأمر في النسخة 11649 من "أزهار الرياض".

وكتبت هذه المادة بمداد غير حارق الأمر الذي لم يؤد إلى احتراق الورق وتفتته، ونلاحظ دائما ختم التملك، ورقم المخطوط في الخزانة في الطرة الموازية لبداية النص، في اللحظة التي نجد فيها التملك يكتب في الصفحة الأولى، أو ما قبل بداية النص[2].

وفي بعد الأحيان نجد بعض التقاييد اللاحقة عن النص، والتي ترتبط بالمؤلف في المكان نفسه[3].

ومن جهة أخرى نلاحظ احتراما كبيرا لتركيب الصفحات في هذه البدايات، إذ إن المساحة البيسطرية بقيت هي هي لم تتغير في البداية وفي النص

---

(1) السرلوحة أو السرلوح الورقة الرئيسة وفي الاصطلاح تعني الصفحتين الأولى والثانية من المصحف مزخرفتين مذهبتين. ينظر: معجم مصطلحات المخطوط العربي. بنبين وطوبي. ص198.

(2) تنظر النسخ 8506و 9171 و7820من نفح الطيب والنسخ 3085و9055 و7789و3101 من أزهار الرياض

(3) كتب في بداية النسخة رقم: 11328 ما يلي توفي الإمام المقري رحمه الله بدمشق عام 1041 هـ

بمفهومه الصميم، ومساحة الطرر حافظت على تراتبيتها المعهودة في المخطوطات باستثناء بعض المخطوطات مما سنذكر لاحقا. وكتبت هذه المادة بخط مغربي حسن طالته الأرضة والتآكل أو البتر فذهبت، في بعض الأحيان، أجزاؤه الأولى. وتبقى البداية دائما بحسب النص الموجود من مثل ما بقي في بداية نص "روضة الآس ". "إذ إن البداية الأصلية مبتورة وهي بحسب ما يوجد في النص الموجود أمامنا من النسخة 220: " لم يسبقوا إليه فإذا فرغوا من ذلك كله دعوا كلهم لمولانا نصره الله".

وفي المقابل هناك نسخ كاملة محلاة بماء الذهب في كتابة بعض الكلمات، وفي الفصل بين الجمل كما هو الأمر بالنسبة لبداية النسخة 784 التي بدايتها[1]: (الحمد لله الذي أعلى مراتب العلماء الأعلام. وزكى منهم العقول الراجحة والأحلام. ومنحهم مآثر تقصر عن جمعها المحابر والأقلام".

وقد نعثر على الخط المشرقي النسخي[2]، كما هو الأمر بالنسبة للنسخة 8253 من "نفح الطيب". الأمر الذي يظهر أن هذه النسخة وافدة من بلد المشرق، ولا تنتمي إلى خصائص الوراقة المغربية بمفهومها الصميم.

ثم إن هذه البداية قد تندرج في الجدول أو الإطار كما هو الأمر بالنسبة للنسخة 784 من "أزهار الرياض"، والنسخة 9055 من الكتاب نفسه، والنسخة 8506 من "نفح الطيب"، والنسخة 5859 من الكتاب نفسه، والنسخة 1672 من الكتاب نفسه أيضا. والجدول كما هو معروف في

(1) انظر سرلوحة النسخة 784

(2) تنظر الصفحتان الأوليتان من النسخة رقم: 8253

الاصطلاح المغربي هو عبارة عن إطار يحصر المساحة المكتوبة، وكان يتم اللجوء إليه غالبا في غياب المُسَطِّرة (بتشديد الطاء وكسرها) الأمر الذي يعني أن النسخ المجدولة هي نسخ من الدرجة الثانية على مستوى الوراقة. في حين نجد أن هناك نسخا أخرى استعانت بالمسطرة[1]، فلاحت أشكالها موثوقة تعكس ملامح حضارة معينة من مثل النسخة 220 من كتاب "روضة الآس". التي بالرغم من آثار البتر والخرم والتآكل، فإنها مبيضة يرجح أن المقري نفسه هو الذي بيضها. ونلاحظ فيها بساطة الخط المغربي، وميله إلى الأندلسي، وثخانة الحروف واستدارتها. إنها معالم مادية تحيل فعلا على القرن الحادي عشر الهجري، ناهيك عن تشابه خط هذا الكتاب مع باقي وثائقه الخاصة ومذكراته. وقد تقترن هذه البدايات بتقاييد أخرى تبصم الزمن أو المكان، من مثل التملك الذي يوجد في النسخة 784 من "أزهار الرياض"، أو التملك الذي يوجد في مستهل النسخة 11328 من "كنز الأسرار".

وبداية النص بالضبط لا تخلو من هاجس الشكل، كما نلاحظ ذلك في النسخة 7789 من "أزهار الرياض"، والنسخ8506 و5859 و1672 و9158 و9814من "نفح الطيب"، ولا تخلو أيضا من هاجس التنقيط بالرغم من أن النصوص التراثية في عمومها تخلو من هذا العنصر. وقد تفصل بين الجمل بجامة ذهبية كما هو الأمر في النسخة 8253 المكتوبة بخط نسخي. أو قد تكون هناك فواصل ذهبية كما هو الأمر في النسخة 11328 من "الروض المعطار"، أو

(1) هو لوح تلصق به خيوط على عدد السطور المطلوبة، وتتناسق فيما بينها حتى تكون متساوية الأبعاد، ثم يوضع فوقها الورق المعني، ويضغط عليه باليد حتى ترتسم فيه السطور الملصقة على المسطرة. ينظر: معجم مصطلحات المخطوط العربي. ص: 332.

النسخة 784 من "أزهار الرياض". أو قد تكون هناك نقط عادية كما هو الأمر في النسخ9158 و1672 و7820 من "نفح الطيب"، أو النسخة 11649 من "أزهار الرياض". ونلاحظ في بعض الأحيان تغيير اللون في كتابة بعض الكلمات ضمن بداية النص، كما هو الأمر بالنسبة للنسخ 8506 و5859 و 1672 و9171 من "نفح الطيب"، والنسخ 3085 و9055 و7789 و9135 من "أزهار الرياض".

بناء بداية النص عند المقري:

نقصد به ترتيب الأفكار، وضبط العنوان، واسم المؤلف، والهجوم على موضوع الكتاب. وهناك أمر يعرض لنا في هذا الباب، وهو أن الكثيرين من المفهرسين يعتبرون أن البداية موقوفة على ما كتب في مستهل النص، إلا أن النظرة العلمية إلى البداية تتجاوز بنا ذلك إلى التماس مفاصل القول، وتتبع خيوط الكلام. فهناك من يطنب في الحمدلة، والتشهد، والتصلية، قبل أن يهجم على موضوعه المقترح، فيكون علينا أن نتجاوز الاستطرادات لكي نمسك بكل أجزاء البداية. فنحن في النسخة 8253 من "نفح الطيب". لم نجد المقري يفضي بنا إلى موضوعه إلا في الصفحة 5 من النسخة نفسها إذ يقول في الصفحة المذكورة: "أما بعد حمد الله مالك الملك والصلاة على رسوله المنجي من الهلك والرضا على آله وصحبه الذين تجلت بأنوارهم الظلم الحلك، وعن العلماء الأعلام الخائضين بحار الكلام. فيقول العبد الحقير المذنب الذي هو إلى رحمة ربه الغني فقير"، وكل الصفحات السابقة عبارة عن شهادة وصلاة وحمد ورضوان وما سار في هذا الباب في جبة الاستطراد مستعينا على قوله بالبيان المسجع، ومندفعا يلوي أعناق القريض كلما تضايق بالمنثور. ونلاحظ

في مجموعة من النسخ أن الصانع كان يترك فراغا بين بداية النص بمفهومه الدقيق والبسملة والحمدلة كما هو الأمر في النسخة 784 من "أزهار الرياض. " إذ كتبت في أعلاها البسملة والتصلية، وشرع في كتابة النص أسفل الفراغ وبعد استطرادات بيانية آسرة يهاجم الموضوع قائلا: أما بعد:

فيقـــــول أحمـــــد ذو القـــــصـــــو ر المقـــــــري إذا انتـــــــــــب

جـــــبر المهـــــيمن صدعـــــــــه ووقـــــاه سيء مـــــا اكتـــــــــب

وهذا الفراغ الذي يتركه الصانع بين بداية النص والبسملة والتصلية كان موضوعا أصلا للسرلوحة، أو كان يترك للمتملك لكي يكتب فيه معلومات الكتاب. وعادة ما يكتب فيه اسم المؤلف. وهكذا نجد في النسخة 11328 من "الروض المعطار". أن هذا الفضاء قد كتب فيه بلون مغاير(الأحمر) ما يلي:

"قال الشيخ الإمام الفقيه العالم العلامة قاضي القضاة أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى بن عبد الرحمان بن يعيش بن أحمد بن محمد المقري التلمساني رحمه الله تعالى ورضي عنه". ثم كانت بداية النص المألوف بعد ذلك.

اللاوعي الثقافي لبدايات النصوص:

البعد العقدي:

تشكل هذه البدايات تعبيرات حرة يركب فيها المؤلف حريته الخاصة، ويستحضر بنات أفكاره، وينتقي من لفظه وتراكيبه حر أسجاعه. إلا أن هذه البدايات لن نتقبلها بالشكل الأولي البسيط. فاختيار اللفظ وراءه اختيار للهوية الثقافية. فلنعد إلى بداية النصوص من نسخ كنز الأسرار التي فيها:

"الحمد لله المنفرد بوجوب الوحدانية في الذات والصفات والأفعال، الذي تنزه عن الشريك والشبيه والنظير والأمثال".

فنحن نلاحظ أن هذه البداية تعكس بعدا كلاميا هو الآتي: إن المقرى يركز على عدم تشابه ذات الله وصفات الله وأفعال الله مع أي أحد فهو واحد في ذاته وصفاته وأفعاله. وهذا الأمر يجعلنا ندرجه ضمن الأشاعرة المتأخرين لأن الأوائل صاروا على درب أهل السنة والحديث. جاء عن الأشعري رضي الله عنه في الإبانة: " فمن سألنا فقال أتقولون إن لله سبحانه وجها؟ قيل له نقول ذلك (..) فإن سئلنا: أتقولون إن لله يدين؟ قيل نقول ذلك"[1].

والمتأخرون إنما وافقوا المعتزلة في التأويل. إن قول المقري بالوحدانية في الذات والصفات إنما يترتب عنه ضرورة تأويل الصفات الاختيارية بالله تبارك وتعالى كتأويل صفة الرضا بإرادة العقاب، وصفة الرحمة بإرادة الثواب. إن الوحدانية في الصفات هي في جوهرها التمييز بين صفات الإنسان وصفات الله. وهكذا يمكن أن ندرك قول المتأخرين من الأشاعرة: إن الصفات الخبرية لله تبارك وتعالى كصفة الوجه واليدين والعينين إنما تحمل على المجاز. وحينما يؤكد المقري تنزيه الله عن الشبيه والنظير، فذلك تعميق لهذا الوجه في تصور الله ودرء للسقوط في التجسيم الذي يذهب إليه عامة الناس. وحينما يقول في بداية نص "أزهار الرياض": "أقول معتمدا على ذي الطول الذي بيده القوة والحول". فإن كلمتي القوة والحول يخرجان باليد من مفهومها الأولي

(1) الإبانة عن أصول الديانة للإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (260-330 هـ) دار الكتاب العربي بيروت، الطبعة 2 -1410هـ-1990م ص: 78-79.

التجسيدي إلى مفهوم القدرة والقوة. وهذا هو وجه التأويل الذي تبناه متأخرو الأشاعرة خوفا من السقوط في التجسيم. ويكشف المقري عن هذه الفلسفة الأشعرية بشكل واضح في كتابه: "إضاءة الدُّجُنَّة في اعتقاد أهل السنة" والذي جاء في أوله:

يقـــول أحمـــد الفقـــير المقـــري المغـــربي المـــالكي الأشـــعري
الحمـــد لله الـــذي توحيـــده أجـــل مـــا اعتنـــى بـــه عبيـــده..
ســـميتها إضـــاءة الدجنـــة لكونهـــا اعتقـــاد أهـــل الســـنة[1]

البعد التصوفي:

حينما يقول في بداية نص النسخة 8253 من "نفح الطيب". المكتوبة بخط نسخي: "يقول العبد الفقير الذليل المضطر الحقير من هو من صالح الأعمال عري". فإنه يكشف عن أخلاق العلماء الكبار في التواضع، وكراهية الذات، وتأنيبها، وتحميلها وزر الأخطاء والذنوب، ثم إننا نشعر بهذه الصورة الزاهدة للمقري الشخص المغسول من الأنانية وحب الملذات، والمنغمس في الفقر والاحتياج إلى الله تبارك وتعالى. والشخص المغالي في اتهام الذات ومحاسبتها ولومها "من هو من صالح الأعمال عري. ". والحق أن هذا الجانب الزهدي هو الذي يستولي على الاستطرادات التي تكون بين مفاصل البداية، إذ كثيرا ما نجده يوجه اللوم إلى الذات، ويحتقرها، ويذكرها بالموت. فانظر إليه في بداية المخطوط 784، يقول: "العبد المسرف على نفسه المعترف بما جناه الفقير إلى

(1) نشر الكتاب في مطبعة القاهرة بمصر سنة 1374 هـ/ 1954 م، بمراجعة وتعليق وتصحيح أبي الفضل عبد الله ابن الصديق الغماري، مكتبة القاهرة – مطبعة محمد عاطف.

رحمة الله سبحانه. "أو قوله في نسخ "نفح الطيب" بعد الاستطرادات: "فيقول العبد الحقير المذنب الذي هو إلى رحمة ربه الغني فقير، المقصر المتبرئ من الحول والقوة. الضعيف الفاني، الخطاء الجاني، من هو من لباس التقوى عري". إن هذه النظرة الاحتقارية للذات هي فلسفة المقري التي ارتضاها لنفسه لباسا يستر الغرور، وقد اختار لها بداية النص لأنه صوة الكتاب وواجهته الأولى. ولعل حياته الترحالية، وزهده في الحياة الراغدة بين الأهل، وتيممه طيبة، وصبره على جفاء المهجر، وموته وحيدا فى بلد الآخر، خير دليل على هذه النظرة الاحتقارية للحياة.

الإصرار على النسب والوطن:

يلفت نظرنا في المادة المدروسة حرص المقري على تحديد هويته. ويذكر اسمه قائلا: "أحمد بن محمد الشهير بالمقري، المغربي المالكي الأشعري". ومن هنا يتبين لنا حقيقة هذه الوظيفة التعريفية التي تقوم بها بداية النص. فالرجل هو أحمد بن محمد تمييزا له عن مجموعة من الأعلام الذين يحملون الاسم نفسه، والمغربي هو نعت للمغرب الكبير كما كان يسمى زمنئذ أو المغرب الأقصى باعتبار حرصه الشديد على هذا البلد وذكرياته بفاس ومراكش، وما كان يحظى به عند المنصور الذهبي من حظوة منقطعة النظير مما جعله يصر على الحياة في المغرب، ويؤلف كتابه الشهير "روضة الآس". تخليدا لمادة أدبية وتاريخية أخطأتها الأسفار. والمالكي نسبة إلى الإمام مالك مذهبا. والشافعي عقيدة نسبة إلى الإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري. إنه بالضبط: "أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى أبو العباس المقري التلمساني المتوفى سنة 1041هـ"[1]. وهكذا فإن بداية

(1) الأعلام، الزركلي، دار العلم، بيروت، لبنان. ط8 – 1989 م م: 1 ص: 237

النص هي تمييزية للكتاب، وتعريفية بالمؤلف، وإيحائية بالمرجعية الثقافية والعقدية. ونلاحظ أن المقري يقدم "المغربي " أو الضبط المكاني على الأمور الأخرى، وكأننا بإزاء مهيمنة المكان في لاشعور المقري، وبالفعل فالرجل قد عاش عدم الاستقرار، وارتحل من بلد إلى آخر؛ من الجزائر إلى المغرب، ومن المغرب إلى مصر، ومن مصر إلى مكة والمدينة، ومن مصر أيضا إلى بلاد الشام. وبقي متمايلا على أجنحة الحنين، يهدهده في استطراداته، ويثير من خلاله خبايا أدبية وتاريخية فريدة في بابها. ومع ذلك فها هو يلح على وطنه الأصل، وكأنما تذوق العلقم من البلدان الأخرى. أليس هو القائل:

بلد الجزائر ما أمر نواها ... كلف الفؤاد بحبها وهواها

يا عاذلي في حبها كن عاذري ... يكفيك منها ماؤها وهواها[1]

والقائل أيضا:

بلادي التي أهلي بها وأحبتي ... وروحي وقلبي والمنا والخواطر

تذكرني أنجادها ووهادها ... عهودا مضت لي وهي خضر نواضر

سلام على تلك العهود فإنها ... موارد أفراح تلتها مصادر[2]

ثم أليس هو الذي ضاق ذرعا من بلد المشرق حتى ردد ما قيل في مصر:

يا أهل مصر وجدت أيديكم ... في بذلها بالسخاء منقبضة

لما عدمت القرى بأرضكم ... أكلت كتبي كأنني أرضة[3]

---

(1) ضمن بداية النص في أزهار الرياض.

(2) ضمن قصيدة في مقدمة نفح الطيب.

(3) هو شعر ردده المقري في مصر لما آنس منهم البخل والحسد.

ولذلك نجد أن تقديم" المغربي" هو رغبة جارفة في ترسيخ الوطن الأصلي، بالرغم من الترحال، أو هو رفض قاطع للمهجر، وتمسك بمسقط الرأس الذي هو بلد الجزائر. ثم إننا نلاحظ أن صفة المالكي سابقة على صفة الأشعري، وهو بذلك يعطي الأولوية للمذهب على العقيدة. فالمذهب هو الدين، وهو العبادات والمعاملات، وسائر السلوكات التي تثبت الفرد على المحجة البيضاء. واختياره للمذهب المالكي هو اختيار ديني واجب، أما العقيدة الأشعرية فهي نزعة كلامية لاحقة تظهر شخصية منفتحة وقادرة على مواجهة العقبات الكلامية التي أفحمت العلماء الجهابذة.

المخطوطات المهاجرة في مكتبة تيدسي

بالمغرب: دراسة كوديكولوجية

المخطوطات المهاجرة في مكتبة تيدسي بالمغرب؛ دراسة كوديكولوجية

نقصد بالمخطوطات المهاجرة جملة المخطوطات الموجودة في مكتبة معينة، والتي وفدت إليها من بلد آخر من بلدان المعمور. وهجرة المخطوط في صورتها السليمة هي الانتقال الكلي للمخطوطة في وعائها المادي ومضمونها. ثم إننا قد نتحدث عن هجرة المخطوط بوصفه محتوى عبر الإقراء، أو السماع، أو النسخ، أو الإجازة، أو ما شابه هذا من وسائل نقل المعرفة بالشكل الذي كان معروفا في القديم. ولا ننسى أن العلماء الذين كانوا يصنفون الكتب في هذا المجال العلمي أو ذاك لم يكونوا مستقرين دائما في بلدانهم، ، بل إن هجرة العلماء وطلبة العلم كانت ديدنا يسم الأعصار السالفة، وكان الألى يعودون منهم إلى أوطانهم الأصلية يعودون محملين بما اقتنوا من نوادر الأسفار. ومثال ذلك ما أشار إليه الأستاذ أحمد شوقي بنبين في هذا الباب: "واشترى الشيخ محمد بن عبد السلام الناصري المتوفى سنة 1240هـ في رحلته إلى استانبول مؤلفات منها كتاب" الكمال "للحافظ عبد الغني المقدسي في مجلدين بثمن بخس، وذلك برسم خزانة الزاوية. وكانت الكتب تقتنى، حسب صاحب "المزايا. " من مكة، والمدينة، ومصر، وطرابلس، وتونس"[1].

فالعلم مرتبط بالشيوخ، والشيوخ موزعون في كل البلدان الإسلامية بصرف

(1) تاريخ خزائن الكتب بالمغرب، ترجمة مصطفى طوبي، منشورات الخزانة الحسنية بالرباط: 2003م ص: 139.

النظر عن الحدود الجغرافية والسياسية. وهكذا فإننا إذا ما أنعمنا النظر في كل المكتبات التراثية في العالم ألفينا أنها مكونة من خليط غير متجانس من الدفاتر والمخطوطات التي تشهد صورها المادية ومعطياتها الحفرية عن حضارات متنوعة وأعراف عديدة. فالمخطوط هو أولا صورة عن الكاتب وثقافته، وهو من جهة أخرى انعكاس لواقع اقتصادي واجتماعي محدد، تعكسه بنيته المادية الصميمة.

وعرفت مكتبة تيدسي التي سنتحدث عنها، بحول الله، في هذا البحث، بنوادر الدفاتر والأسفار[1] كنار على علم. مثلها في ذلك مثل سائر المكتبات التراثية الأخرى. وهي مرتبطة في نشأتها بالدولة السعدية. قال عنها وعن زاويتها المختار السوسي رحمه الله: "نسبة إلى قرية تيدسي، وهناك كانت بيعة الأول من السعديين، فمر هناك مجد عظيم وعلم وأدب، ولا تزال خزانة الأسرة محفوظة، وقد انقرض العلم أخيرا هناك فصارت الخزانة من الموءودات"[2] وتكونت المكتبة المذكورة من النسخ، والهبات، والشراء، والوقف. وتضم من كل فن طرف؛ ففيها المصاحف، وكتب الآداب، والبلاغة، والنحو، والعروض، والتراجم، والتاريخ، والتصوف، والتوحيد، والفقه، وأصول الفقه، والسيرة النبوية إلخ. وتحدها الآن ثلاث قبائل مشهورة هي سندالة من الجهة الشرقية والجنوبية، وهوارة من الشمال، وإدامنو التابعة لإقليم اشتوكة أيت بها من الغرب. وقد أسسها سيدي محمد بن مبارك الأقاوي المتوفى في

(1) قال عنها المختار السوسي رحمه الله: " ورأيت بعضها من الكتب التي أخرجت إلينا متصفحا، فرأيت منها كتبا كانت تعد من النوادر الغريبة. وقد قيل لي إنها تقارب ألف دفتر. " سوس العالمة، المختار السوسي مطبعة فضالة المحمدية 1380 هـ ص: 173.

(2) سوس العالمة ص: 148

أوائل القرن العاشر الهجري، وكان قد أمر قبائل سوس بمبايعة السعديين، وتوجد الآن في مكانها التاريخي المذكور. وهي تبعد عن مدينة أكادير بحوالي ستين كيلومترا، ودون زيارتها صعوبات كثيرة استمرت إلى عهدنا نحن[1]. وتحدث عنها المختار السوسي في المنتصف الأول من القرن العشرين قائلا: "وأتذكر أني كنت تواعدت معه - مسعود الوفقاوي[2] - أن نزور تيدسي لرؤية خزانتها، واشترط علي أن لا يركب إلا بغلته، فإذا به أرسل إلي أن السيد عبد السلام القيم على الخزانة رفض الزيارة، محتجا بأن فلانا الدرقاوي لا يدخل مقامنا نحن أصحاب مولاي أحمد"[3].

والراجح أن صعوبة الاستفادة من هذه المكتبة إنما يعود إلى تقيد الأحفاد التيدسيين بوقفية الفقيه عبد السلام بن القائد الحنفي التيدسي الذي حصر الاستفادة من المكتبة على التيدسيين فقط دون غيرهم. جاء في هذه الوقفية ما يلي: "بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم: أشهدنا بحول الله وقوته الفقيه العلامة السيد عبد السلام بن القائد الحنفي التيدسي السندالي أنه حبس خزانته للكتب المشتملة على أنواع الفنون العلمية على العلماء والطلبة من أبنائه وأبناء أبنائه ما تناسلوا وامتدت فروعهم

---

(1) لم أتوفق في زيارة المكتبة على عهد فقيهها الأسبق الحاج العربي الأنصاري التيدسي بالرغم من سفري إلى قرية تيدسي، وإلى الزاوية تحديدا، ولم أتمكن من زيارتها إلا بعد استعانتي بمعارف قيمها الفقيه المصطفى بن العربي التيدسي.

(2) فقيه مدرسة إيغلالن بسوس التي تعد مكتبتها من كبريات خزائن هذا القطر، فقد كانت تعد دفاترها بألف سفر إلى حدود منتصف القرن العشرين، أي في الزمن الذي مات فيه مسعود الوفقاوي.

(3) المعسول، المختار السوسي، مطبعة النجاح، الدار البيضاء: 1960 م ج: 1 ص: 68.

دون غيرهم من الأبناء. فإن قضى الباري جل علاه بانقضاء العلماء منهم، فليتولى حفظها وصيانتها من أظهر الله فيه الصلاح لحفظها وصيانتها إلى أن يظهر الله فيهم من فيهم الأهلية بفضله. وأنه يوصي ويؤكد جميع من صار من الأولاد آمنا عليها أن لا يعير لأي أحد كيفما كان نوعه، وكيفما كانت مرتبته كتابا ولو ورقة واحدة منه. فمن رغب من علماء المسلمين المطالعة والاستفادة فلا يرى بأسا أن يسعدوه ويقفوا معه إلى أن يشفي غليله. ويوصيهم كذلك أن يتقوا الوعيد الشديد الوارد في كتمان العلم. وقد جعل هذا الحبس حبسا تاما مؤبدا سرمدا إلى يوم الدين. فمن سعى في تغييره، أو تبديله، أو تحريفه، فالله حسيبه وسائله وولي الانتقام منه ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [سورة الشعراء آية: 227] شهد على إشهاده في تاريخ جمادى الأولى عام 1332 هـ عبد الله بن عبد الرحمان التملي رعاه الله وعبد ربه الحسن بن محمد وفقه الله آمين"[1].

والمكتبة الآن في أحلك أيامها، إذ تراجع عدد دفاترها، فلم يبق منها إلا حوالي سبعمائة وثلاثين مخطوطا، وطالتها الرطوبة، وبلغت فيها الأرضة والعث مبلغا خطيرا في الافتراس. وهي تضم مخطوطات محلية النسخ أو التأليف من مثل كتاب: "قواعد الإسلام". لسليمان بن خلف الباجي الذي انتسخه في الزاوية التيدسية أحمد بن محمد بن محمد بن مسعود التيدسي في ذي الحجة عام 996 هـ، و"متن الرسالة القيروانية"، التي انتسخها الشيخ مبارك بن إبراهيم التيدسي، و"أيسر المسالك إلى ألفية ابن مالك" لمحمد العربي

(1) وثيقة موجودة عند الفقيه المصطفى بن العربي التيدسي

الأدوزي[1]، ونسخة من "الأسماء المبهمة "انتسخها علي بن أحمد التشكدلتي في 1293 هـ، ونسخة من كتاب: "المعرفة على مراد الربوبية"[2]، الذي نسخه إبراهيم بن سعيد بن داود الشطاحي سنة 984 هـ، ونسخة من مؤلف في العقيدة[3]، لأبي عثمان بن سعيد بن أبي عبد الله العقباني المنتسخة سنة 909 هـ، ودفاتر أخرى عديدة تعاورت على نسخها شيوخ الأسرة التيدسية نفسها، مثل عبد القادر بن محمد بن محمد التيدسي، ومحمد بن أحمد التيدسي، وأحمد بن أحمد التيدسي. وتضم، من جهة أخرى، مخطوطات أجنبية وفدت إليها تحديدا من البلدان الإسلامية الأخرى من مثل الجزائر، وتونس، وليبيا، وتركيا، وفلسطين، ومصر، وإيران، والأندلس، والسودان. ومن هذه المخطوطات المهاجرة في هذه المكتبة العتيدة أذكر نسخة من كتاب "شرح جمع الجوامع في أصول الفقه والدين"[4] لجلال الدين محمد بن أحمد المحلي الشافعي (ت791هـ864م)، ونسخة من"صحيح البخاري"[5] لمحمد بن إسماعيل البخاري، نسخها عبد الله بن محمد بن عبد الله النبهاني، ونسخة من "فتح الباري" لابن حجر العسقلاني[6]، ونسخة من "تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الحكام"[7]، لبرهان الدين أبي الوفاء إبراهيم بن فرحون

(1) حققته الباحثة نجاة أبوية في إطار رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في الآداب.

(2) المخطوط رقم: 817.

(3) المخطوط رقم: 800.

(4) المخطوط رقم: 226.

(5) المخطوط رقم: 70.

(6) المخطوط رقم: 87.

(7) المخطوط رقم: 243.

(ت799 هـ)، ونسخة من "شرح عقيدة السنوسي"[1]، لمحمد بن محمد بن إبراهيم التلمساني (ت 897 هـ 1492، (ونسخة من صغرى السنوسي[2] لمحمد بن يوسف السنوسي (ت895هـ)، ونسخة من" منظومة التوحيد"[3] المعروفة بـ" الجزائرية في العقائد الإيمانية "، للشيخ الإمام القدوة أبي العباس أحمد ابن عبد الله الجزائري، (ت 884 هـ 1479 م)، ونسخة من "شرح مورد الظمآن"، لمحمد بن إبراهيم الشريشي (ت718)، ونسخة من "أحكام السهو في الصلاة"[4]، لأبي الحسن علي بن يحيى المالقي، وغير هذا كثير من عيون الدفاتر الموجودة في هذه الخزانة العتيدة التي كانت منارة العلم على عهد السعديين، كما ذكر ذلك المختار السوسي رحمه الله، ومازالت إلى الآن قبلة للباحثين والأساتذة المتخصصين في التراث.

ونحن، في هذا البحث، إنما سنركز على عينة من الأوعية ذات الأصل الواحد، توخيا لإضاءة هذا الموضوع بما من شأنه أن ينفض الغبار عن الكتاب المخطوط، وقد انتخبنا نماذج مما ناوله إيانا الفقيه المصطفى بن العربي الأنصاري التيدسي وفقه الله، فنحن سنتحدث بحول الله عن نسخة من "منظومة التوحيد. " لإمام أبي العباس أحمد بن عبد الله الجزائري[5]، ونسخة من "تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الحكام"، لبرهان الدين أبي

(1) المخطوط رقم: 205.

(2) المخطوط رقم: م 206 الكتاب: 1.

(3) المخطوط رقم: م 206 الكتاب: 5.

(4) المخطوط رقم: 389.

(5)أحمد بن عبد الله الجزائري الزواوي فاضل مالكي من قبيلة زواوة. كانت إقامته بالجزائر توفي سنة 884 هـ. الأعلام للزركلي بيروت ط: 8 ج: 1 ص: 160.

الوفاء إبراهيم بن فرحون[1] (باعتبار أصل هذا الرجل)، ونسختين من "صغرى السنوسي"[2]، ونسخة من "شرح عقيدة السنوسي" لمحمد بن محمد ابن إبراهيم التلمساني، وإنما اخترنا هذه النماذج لانتفاء معلومات النساخة في حرد المتن، ولاختلاف الخط الذي كتبت به عن الخط السوسي المألوف في هذا البلد الموجود في جنوب المغرب، فأيقنا أنها مهاجرة علما أن الهجرة عندنا تنطبق على المحتوى، وعلى الوعاء، وقد ننطلق من أصل المؤلف كما هو الأمر بالنسبة لابن فرحون مثلا. وسيكون تناولنا لهذه المادة مبنيا على حفريات الكتاب المخطوط أو ما يسمى بعلم المخطوط.

وأود أن أشير إلى أن علم المخطوط إنما يكتمل باتساع رقعة المادة المدروسة، ويتراجع إلى مستوى الوصف بعكس ذلك. وقد زرت من جديد مكتبة تيدسي في بداية شتنبر 2007 م، برفقة الفقيهين أحمد فاضل وإبراهيم أيت بولكسوت[3]، ولم أتمكن من الوقوف بالمخطوطات ملء الوقت الذي يكفيني، كما لم يرخص لي بالتصوير لبعض الصفحات اللافتة للنظر، وإنما كان القيم يحمل إلي المخطوط تلو المخطوط وفق الطلب، وهو الأمر الذي يفسر اقتراب هذه الدراسة من الملاحظة الوصفية الأولية.

---

(1) ولد ونشأ بالمدينة لكن أصله مغربي. الأعلام، ج: 1 ص: 52.

(2) هو عالم تلمسان في عصره وصالحها ت: 895 هـ 1490 م.

(3) هما إمامان لمسجدين بأكادير، وطالبان باحثان درسا عندي مادة الفهرسة، وأنجزا برفقة الطالب الحسين أبي الوقار عرضا تحت إشرافي عن خزانة تيدسي الواقع والآفاق، جامعة القرويين، كلية الشريعة، سلك ماستر الشريعة "المذهب المالكي تراثه وأصوله وآفاق الاجتهاد فيه". السنة الجامعية: 2006- 2007م.

التناول الكوديكولوجي للنسخ المدروسة:

الأصل في التناول الكوديكولوجي أن يحصل هناك تركيب بناء على أقصى ما يمكن من النسخ. فالدراسة المادية للمخطوط تنطلق من الملاحظة لأكبر نسبة من المخطوطات، لتصل إلى بلورة القوانين التي تفسر خصوصيات هذه المجموعة أو تلك من المخطوطات، بيد أن مكتبة تيدسي هي مكتبة عائلية منحصرة على أحفاد العائلة التيدسية لذلك فإن القيم الحالي السيد المصطفى بن العربي الأنصاري التيدسي كان محاصرا بتوصيات العائلة وبتوقيفاتها، وبأداء واجبه المدروس تجاه الصحاب الذين يزورون المكتبة.

الجزائرية في العقائد الإيمانية في التوحيد لأبي العباس أحمد بن عبد الله الجزائري:

هو كتاب ضمن مجموع مكتوب على ورق قماشي لين وصامد يعود إلى حوالي ثلاثة قرون، نلاحظ فيها احترام المساحة المكتوبة la justification من خلال تركيب الصفحات، إذ إن الطرة الداخلية هي الصغرى، تليها طرة الرأس، ثم الطرة الخارجية، وأخيرا طرة الذيل أو الطرة السفلى، مما يدل على أن نسخ هذا الكتاب قد تم بواسطة الآلة الوراقية المعروفة قديما بالمسطرة) بضم الميم وفتح السين وتشديد الطاء وكسرها)، والخط يجمع بين مميزات الخط المغربي الجزائري[1] (المشتبه في أغلب جزئياته بالخط المغربي الفاسي)، والخط الصحراوي المائل إلى الثخانة، ويتشكل الكتاب من خماسيات، وظهرت المنظومة في حوالي عشرين صفحة متشابهة في مساحتها المكتوبة، إذ هي عادة

(1) كلمة الخط المغربي عامة تنطبق على كل خطوط المغرب العربي. فنحن نقول: خط مغربي جزائري، وخط مغربي تونسي، وخط مغربي صحراوي، وخط مغربي فاسي، وخط مغربي سوسي إلخ.

عبارة عن درج واحد للكتابة لا يفصله إلى صورة الفراغ بين السطرين. وليس هناك ذكر للناسخ وتاريخ النسخ، ونلاحظ فيها وجود طرر على هامش الأبيات هي عبارة عن لواحق للمنظومة من مثل هذا البيت الموجود في الهامش:

يـــذاد عنـــه أنـــاس لا خـــلاق لـــهم قـــد قـــابلوا الـــدين بـــالتغيير والبـــدل

وتسمى هذه الإضافات في الهوامش باللحق، وتدرس في إطار التقاييد النصية للنساخة. وقد كتبت فصول هذه المنظومة بالأحمر، وضبط رويها الذي هو حرف اللام بشكل ثخين، والمنظومة في 360 بيت من بحر البسيط أولها:

قال الشيخ الإمام الفقيه قدوة المتقين الولي العلامة عالم الأعلام السيد أبو العباس أحمد بن عبد الله الجزائري رحمه الله ورضي عنه ونفعنا به وبأمثاله بمنه وفضله.

وآخرها:

إن النـــوى جـــاءت غـــير واحـــدة كـــذا الأوامـــر لا تحـــصى لممتثـــل

فـــلازم العلـــماء العـــاملين بـــه واســـلك. وإن جهلـــت ســـل

وثـــق بمـــولاك لا تبغـــي بـــه بـــدلا فـــما عـــن الحـــق جـــل الله مـــن بـــدل

واضرع عليـــه بـــصدق فهـــو ذو كـــرم هـــذا الـــسبيل إليـــه أقـــرب الـــسبل

وقـــل إلهـــي يـــا مـــن لا شريـــك لـــه مـــالي ســـواك عليـــك اليـــوم متكـــل

فـــامنن عـــلي بتوفيـــق ونيـــل تقـــي منـــك الهدايـــة للتوفيـــق للعمـــل

ومن فصول هذه المنظومة القيمة، حكم التقليد وقواعد التوحيد، وفي أول الواجبات، والاستدلال بالنظر في المخطوطات، وفي ما يجب من الوجود للإله

المعبود، وفي وجوب الوحدانية لخالق البرية، وفيما يستحيل على الولي الجليل، وفي التنبيه على ما يوجب التشبيه، وفي ثبوت صفاته تعالى المعنوية، وفي الحياة والسمع والبصر، وفي العلم، وفي الإدارة إلخ، ، وقد كتبت هذه العناوين بلون ثخين أحمر مخالف للمنظومة، وجاء في بداية النص ما يأتي:

الحمد لله وهو الواحد الأزل سبحانه جل عن شبه وعن مثل

فليس يحصى الذي لله من نعم أجلها نعم الإيمان بالرسل

من ذا من الخلق يقضي شكر واهبها لو كان يشكر طول الدهر لم يصل

ثم الصلاة على خير الورى أبدا وصحبه مع سلام طيب حفل

وبعد فالعلم بالتوحيد مفترض بالاحتلام وعقل غير مختبل

وقد استعمل في ترقيم هذه المنظومة، التي هي الكتاب الخامس ضمن مجموع، نظام التعقيبة أو الرقاص أو الوصلة، وهو نظام معروف منذ القديم يتجلى في كتابة أول الصفحة الموالية في أسفل الصفحة السابقة. وكانت تكتب كلمة أو كلمتان في ربط صفحات هذه المنظومة بشكل أفقي. وهناك إلى جانب هذه المنظومة كتب أخرى في هذا المجموع منها كتاب الإعلام للقاضي عياض، ومنظومة في الفرائض، ومنظومة في التوحيد، وكتاب في قواعد الإسلام لأبي الوليد الباجي.

صغرى السنوسي لمحمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي:

توجد من هذا الكتاب المعروف بأم البراهين في مكتبة تيدسي نسختان؛ نسخة عريقة ضمن مجموع، والراجح أنها الأصل[1]، وأنها وافدة من بلد

(1) المخطوط رقم: 206.

آخر، ونسخة محلية النساخة[1]، وهي مأخوذة، فيما يبدو، عن النسخة الأولى، ونلاحظ أن هذه النسخة الأولى قد عميت بعض كلماتها، واستغلقت بعض حروفها، في حين أن النسخة الثانية تامة وواضحة بشكل لافت للنظر، وانطلاقا من أن القاعدة الفيلولوجية تحث على أن النص المستغلق والمبهم أوثق من النص المصحح والواضح، من منطلق أن الدرس الفيلولوجي الحديث رفض الأخذ بالمفهوم التقليدي للنسخة الأم، ورفض الأخذ بالمقابلة بالشكل الذي يصنعه المحققون العرب، وجعل النسخة الجيدة هي النسخة المليئة بالأخطاء يقول "ألفونس دان": "ليس هناك أحسن نسخة، وإذا ما شئنا البحث عنها فهي تلك التي تترك الأخطاء بدون تصحيح، وتجعلنا نعود إلى المرحلة الأولى للتغييرات"[2]. وفي الاتجاه نفسه، يكون الناسخ العالم أسوأ بكثير من الناسخ ذي الثقافة الأولية الذي يتمسك بقراءة النموذج حرفا حرفا.. فإننا نعتقد بأصالة النسخة الموجودة في المجموع الأول[3]، والمفتقدة إلى اسم الناسخ وتاريخ النسخ، جاء في أولها:

"قال الشيخ الفقيه العالم العلامة الولي الصالح سيدي محمد بن يوسف السنوسي رحمه الله ونفعنا به آمين والحمد لله والصلاة على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيئين وإمام المرسلين ورضي الله تعالى على أصحاب رسول الله أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أعلم أن الحكم العقلي ينحصر في ثلاثة

---

(1) المخطوط رقم: 203

(2) ينظر:

Les Manuscrits. Alphonse Dain- Les belles lettres – Troisième .édition – Paris 1975 P169

(3) المخطوط رقم: 206.

أقسام الوجوب والاستحالة والجواز".

وفي النسخة المأخوذة عنها نجد تعبيرا مخالفا فعوض صيغة الأمر "اعلم أن الحكم العقلي" نجد التعبير الآتي: "بعد: فهذه جمل مختصرة يخرج المكلف بفهمها إن شاء الله تعالى من التقليد المختلف في إيمان صاحبه إلى النظر الصحيح المجمع على إيمان صاحبه، وذلك أن تعلم أولا "، وفي اللحظة التي نجد فيها النسخة الأولى مفتقدة إلى اسم الناسخ وتاريخ النسخ، فإننا نجد ما يلي في النسخة الثانية: "كملت بحمد الله وحسن عونه في يوم الأحد التاسع والعشرين زمن صفر عام خمسة وثلاثين وألف بتيدسي على يد كاتبه لنفسه ولمن شاء الله من بعده عبد المومن بن إبراهيم بن مسعود بن موسى بن محمد بن الحسن، " ثم إننا نلاحظ أن مقياس النسختين مختلف؛ فالأولى مقياسها هو 19 X 15 سم، والثانية مقياسها 22 X18 سم، مما يعني أن المحترفين لصناعة الكراريس مختلفان، ولا ينتميان للمنطقة نفسها. ثم إن الخط الذي كتبت به النسختان مختلف؛ فالأول صحراوي ثخين مشكول وملون، مما يعطي الانطباع بأنه منحدر من الصحراء الجزائرية الكبرى أو من موريتانيا، والثاني مغربي سوسي دقيق ومشكول.

أما عن نوع الكراريس في الكتابين، فالكتاب الأول مكون من خماسيات، وهي كراريس مكونة من خمس صفائح مزدوجة، وهي معمول بها في صناعة المخطوط العربي، في حين أن الكتاب الثاني مكون من سباعيات وهي كراريس مكونة من سبع صفائح مزدوجة، مما يدل أن طريقة الصنع مختلفة، ويؤكد انحدارهما من محترفين مختلفين. ونلاحظ أن تركيب الصفحات قد تم احترامه في النسخة المهاجرة بشكل لافت للنظر، مما يدل على أن النساخة قد تعقبت

المسطرة[1]، فهناك أولا الطرة الداخلية le petit fond، وهي أصغر الطرر كلها، ثم تأتي بعدها طرة الرأس la marge supérieure.

ثم الطرة الخارجية la marge de gouttière وأخيرا تأتي طرة الذيل، la marge inférieure وهي أكبر الطرر. وفيما يخص التسفير فنحن نلاحظ أنه لا أثر للتسفير الأصلي في هذا المخطوط، بل هناك فقط تسفير دخيل مفتقد إلى خصوصيات التسفير الوراقي المزود باللسان والترنجة.. وكتب في نهاية الكتاب مجموعة من الفوائد النصية الجديرة بالدراسة في إطارها السوسيوثقافي، منها": من امتلأ بطنه خاف منه الضرر، فليضع يده عليه، ويقول الليلة ليلة عيد ورضي الله عن سيدي أبي عبد الله القرشي، فإنه لا يضره مجرب صحيح".

ومنها: "فائدة لدفع ورم الأسنان، ولكي يثبت اللحم على الأسنان ويصقلها يؤخذ المصاصة ومثله من العسل يطبخان حتى لا يبقى إلا العسل، ويستاك به في طنوفة من دعة على الريق، أو يستاك بالشب اليماني في الصوف المودح".

ومنها: "لجميع أورام الجسد يسحق السنوج ويعجن بالخل ويربط عليه وكذلك أورام الإبط وبين الفخذين".

إن هذه التقاييد النصية، لها أهمية سوسيو ثقافية قصوى، كما سبقت الإشارة إلى ذلك. فنحن بإزاء نخبة مثقفة حريصة على مادة الكتابة، وشحيحة

(1) هي لوح تلصق به خيوط على عدد السطور المطلوبة، وتتناسق فيما بينها حتى تكون متساوية الأبعاد، ثم يوضع فوقها الورق المعني، ويضغط عليه باليد حتى ترتسم فيه السطور الملصقة على المسطرة، والمسطرة أجود ما تكون من الأبنوس ومن البقس. معجم مصطلحات المخطوط العربي، قاموس كوديكولوجي، أحمد شوقي بنبين ومصطفى طوبي ط: 3 ص: 332.

في استعمالها، وفضولية في القول في جميع الميادين العلمية بالشكل الذي تقتحم به ميدان الطب دون احتراس. وكأنما نحن بإزاء ثقافة موسوعية كاسحة لا وجود فيها للتخصص، ثم إننا نسجل ندرة المصادر الطبية في اللحظة المدروسة، وهذا أمر معروف إذا ما قابلنا بين العلوم الشرعية واللغوية، والعلوم الطبية، والرياضية، والكيميائية، والهندسية، التي كانت شبه غائبة.

إن هذه النسخة، إذن، ناطقة بمعطيات حضارية لافتة للنظر. وستكون أكثر فائدة لو حصلت هناك دراسات مونوغرافية شاملة للتسفير، والنساخة، والزخرفة، وغيرها من المهام الوراقية حسب البلدان والعصور، بالشكل الذي صنعه المنوني رحمه الله في تاريخ الوراقة المغربية[1].

"شرح عقيدة السنوسي" لمحمد بن عمر بن إبراهيم التلمساني[2]:

وهو الكتاب الأول ضمن مجموع، أوله: "ويقول عبد الله تعالى محمد بن عمر ابن إبراهيم التلمساني غفر الله له ولوالديه ولأحبته بجاه سيدنا محمد ﷺ.

الحمد لله المنفرد بوجود الوحدانية في الذات والصفات والأفعال الذي تنزه عن الشريك والشبيه والنظير والمثال، وبعد فقد سألني بعض المحبين شدد الله قلبي وإياهم بأنوار اليقين".

---

(1) صناعة المخطوط العربي من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة، منشورات كلية الآداب بالرباط: 1991م. وهو مونوغرافية فريدة من نوعها في أسامي الوراقين في الفترة المذكورة، حبذا لو صنعت على غراره مونوغرافيات أخرى لكل البلدان الإسلامية وفي جميع العصور حتى يتسنى لعلماء المخطوطات الارتكاز على منطلقات علمية دقيقة.

(2) محمد بن إبراهيم بن عمر بن علي. (توفي سنة 897 هـ 1492 م) كان من تلامذة محمد بن يوسف السنوسي التلمساني إذ لازمه وصنف في مناقبه كتاب: "المواهب القدوسية في المناقب السنوسية". الأعلام، ج: 5 ص: 301.

وآخره: "هذا آخر ما قصدته من هذا الشرح المبارك المفيد، فنسأله سبحانه أن ينفعنا به دنيا وأخرى على من اعتنى به من إخواننا المومنين، وأن يجعلنا بفضله مع الشيخ ومع سائر الأحبة في أعلى عليين بجاه مولانا وسيدنا ونبيينا محمد ﷺ ".

وقد كتب هذا الكتاب بخط الكتاب بخط مغربي دقيق، وكراريسه خماسيات (أي أن كل كراسة منها مكونة من خمس صحائف مزدوجة)، قياسه 15 X 21 سم، وعدد أوراق المجموع الذي يوجد فيه أربعمائة ورقة، غلافه أصيل ذو لسان يمتد في دفته اليسرى، وأركانه مزخرفة بشكل هندسي، وتتوسط الجلدة الأصلية للسفر ترنجة مرشومة في دفتيه اليمنى واليسرى. أما تركيب صفحاته فهو منسجم مع القاعدة المتعارف عليها في دول المغرب العربي من تدرج من الطرة الداخلية، ثم العليا ثم الخارجية ثم السفلى.. أما الزخرفة النصية فلا تكاد تتجاوز بعض التغييرات اللونية في كتابة بعض الكلمات. وقد وجدت في طرر النص المدروس بعض الهوامش النصية من مثل هذه الأبيات التي وقفت عليها في نهاية الكتاب:

يـــا نـــاظرا في الخـــط كيـــف صـــورا ادع لنـــا يـــا ســـيدي بالمغـــفره

فـــإن بقـــي في الخـــط شيء فاعـــدلا لأننـــي كتبتـــه مـــستعجـــلا

وإن وجـــدت عيبـــا أو تـــصحيحا أصـــلحه يـــا أخـــي وكـــن ظريفـــا

أما مادة الكتابة في المجموع كله فهي الورق القماشي، وذلك لصموده أمام حدثان الدهر وظروف الصيانة الرديئة الموجودة في مكتبة تيدسي. وملمسه اللين الذي ينزاح عن الانكسار والتآكل.

كتاب تبصرة الحكام في أصول الفقه ومناهج الأحكام[1] لإبراهيم بن علي المشهور بابن فرحون: وهو أيضا كتاب ضمن مجموع، جاء في أوله برنامج الكتاب وهي عادة مشرقية في ضبط المحتويات قلما نجدها في مخطوطات الغرب الإسلامي. وكتبت في البرنامج عناوين الفصول والأبواب. ويليه في المجموع كتاب العلوم الفاخرة في النظر في أمور الآخرة لعبد الرحمن بن محمد الثعالبي، ومنظومة في الفرائض لأحمد بن سليمان الجزولي، أوله: "قال الشيخ الإمام المتفنن صدر المدرسين وعهدة المستفيدين وموضح الدلائل وكاشف غوامض المسائل القاضي برهان الدين إبراهيم بن علي الشهير بابن فرحون اليعمري المدني برد الله ضريحه. أما بعد، فإن الله أكمل بنبيه محمد ﷺ دينه القويم وهى به من شاء على الصراط المستقيم وأسس شرعه المطهر على أحسن الطريق وأحكم القواعد وشيده بالتقوى والعدل".

وآخره: "كمل تبصرة الحكام في أصول الفقه ومناهج الأحكام بحمد الله وحسن عونه وتوفيقه الجميل بمنه الكريم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما".

وجاء في حرد متنه في شكل مثلث: "والحمد لله رب العالمين اللهم صل على سيدنا محمد وآله وصحبه وأزواجه وذريته وتابعيه إلى يوم الدين عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته آمين".

وكتبت النسخة بخط مغربي دقيق وملون، مقياسها32 x 23 سم، واستعملت في ترقيمها وسيلتان للترقيم؛ فهناك أولا التعقيبة المعهودة في

(1) النسخة رقم: 243. وهناك نسخة أخرى انتهت من المكتبة إلى الخزانة الناصرية نسخها محمد بن أحمد الجزولي المراكشي

أغلب المخطوطات، وهناك إلى جانبها ترقيم عددي في الركن الأعلى من كل صفحة. وقد حافظ المجموع على تسفيره الأصلي الذي يحيل على طريقة تسفير الكتب في بلدان المغرب العربي، فقد أفاض أجدادنا القول في هذا الباب، ولا نعدم في التاريخ كتبا جليلة في هذه الصنعة[1]. وصورة هذا الغلاف دفتان سميكتان مكسوتان بجلدة رقيقة مرشومة بتزاويق هندسية، وهناك في كل جهة من الدفتين ترنجة بنية اللون، وأركان مذهبة، ولسان في الدفة اليسرى. ومن جهة أخرى، لاحظت أن المجموع مكون من سداسيات؛ وهي الكراريس المكونة من ست صحائف مزدوجة. وعدد أوراقه 450 ورقة، أي ما مجموعه خمس وسبعون كراسة ورقية. أما مادة الكتابة فهي ورق خشبي[2] سريع التدهور، الأمر الذي يفسر لنا حجم الضرر الذي لحق بالمخطوط في صورته العامة.

وفي إطار التركيب نقول بشكل عام إن كل المخطوطات المدروسة قد كتبت على مادة الورق وهي المادة التي استعملت في كل أقطار العالم العربي بعد استعمال مادة الرق في القرون الهجرية الثلاثة الأولى، لاسيما وأن العرب هم أول من أدخل صناعة الورق إلى إسبانيا وبلاد الروم.

---

(1) ينظر بهذا الخصوص: التيسير في صناعة التسفير، لبكر بن إبراهيم الإشبيلي، مدريد: 1960، والسفياني، صناعة تسفير الكتب وحل الذهب، فاس: 1919م.

(2) يمكن التمييز بين الورق الخشبي والورق القماشي بسهولة بواسطة الملاحظة الأولية لمادة الكتابة؛ فالورق الخشبي عادة ما يكون ضعيفا من مادة السيلولوز، وهو لذلك يكون سريع التآكل والتدهور، ويكون ملمسه خشنا وقابلا للانكسار، أما الورق القماشي فهو بخلاف ذلك غني بمادة السيلولوز، وهو لذلك يكون شديد المقاومة والصمود، ويكون ملمسه لينا.

ثم إننا نلاحظ أن كل المادة المدروسة قد كتبت بخطوط مغربية مختلفة عن الخطوط المغربية الفاسية أو السوسية أو البدوية كما هو الأمر بالنسبة للنسخة الأصلية من عقيدة السنوسي التي تقترب من الخط التنبكتي، وكما هو الأمر أيضا بالنسبة للخط الذي كتبت به نسخة "الجزائرية في العقائد الإيمانية" الذي تظهر في هجانته الصحراوية والمغربية بقايا آثار الخط الأندلسي. ونلاحظ أيضا أن كل النسخ مزودة في ترقيمها بالرقاص، وهذا أمر مألوف في كل بقاع العالم العربي، إلا أننا نلاحظ أن هناك نسخة من المادة المدروسة وهي"تبصرة الحكام" قد استعمل فيها نظامان للترقيم؛ التعقيبة، والعد بالأرقام، وهذا الأمر مألوف فقط في المخطوطات المكتوبة بالحرف اللاتيني[1] مما قد يعني أن ناسخها كان على معرفة بخصوصيات المخطوط الإفرنجي أو الرومي. ونلاحظ من جهة أخرى سيطرة الخماسيات Quinions في صناعة الكراريس على أغلب المادة المدروسة. ووجود الخماسيات بكثرة في تراثنا المخطوط أمر سبق أن أكده المستشرق الفرنسي المشتغل بالتراث الإسلامي "فرانسوا ديروش"[2]. وبخصوص تركيب الصفحات la mise en page فنحن نلاحظ احترام كل صحائف المادة المدروسة لقياسات الهوامش المتعارف عليها والمذكورة آنفا، ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا إذا كانت صناعة المخطوط توظف المسطرة في تعيين المساحة المكتوبة.

---

(1) تنظر التقاييد الإجرائية من كتاب: "مدخل إلى علم المخطوط" لجاك لومير، ترجمة مصطفى طوبي، منشورات الخزانة الحسنية مراكش: 2006 م ص: 277.

(2) The codicology of the islamic manuscripts. Al Furquàn Islamic Heritage foundation London 1995 p 29

ولا نكاد نتبين آثار الخزم[1] في النسخ المدروسة، وهذا يؤكد احتمال عدم استعمال هذه التقنية في تراثنا العربي الإسلامي. أما بخصوص الترتيب l'imposition فلم ألاحظ أبدا آثار التماسك على إحدى الصحائف المزدوجة للأسفار المعنية، ويفضي بنا هذا إلى القول إن الكراريس كانت تطوى وتقطع قبل أن يكتبها الناسخ. أما بخصوص النمنمة والزخرفة في هذه المادة فهي شبه غائبة لأن هذه النسخ هي مخطوطات عادية، وليست خزائنية أو ملوكية، والمادة مفتقدة أيضا للهوامش الذاتية الشاردة، والهوامش النصية التي هي ذات أهمية قصوى في تعقب أصل المخطوط من مثل الإجازة، والتحبيس، والمناولة، والسماع، وعقود البيع والشراء. وبالنسبة للفوائد التي وقفنا بها في صغرى السنوسي فهي تؤكد الصورة الأركيولوجية القيمة التي تضاف إلى الخطوط على أساس أنه ليس فقط محتوى صميما للمعرفة، وإنما هو بالأساس قطعة أثرية شاهدة على حضارة بائدة.

(1) الخزم أنواع كثيرة؛ منها خزم التجليد، وخزم التسطير، وخزم صناعة الملزمة، وخزم تركيب الصفحات. ينظر: معجم مصطلحات المخطوط العربي. بنبين وطوبي، ص: 145.

التراث الصحراوي المخطوط

بين الجرد الأولي والدراسة الحفرية

التراث الصحراوي المخطوط
بين الجرد الاولي والدراسة الحفرية

هناك ثلة من العلماء الكبار الذين بصموا التاريخ بالاشتغال بالمخطوط وطال اهتمامهم المخطوط الصحراوي أيضا من مثل محمد عبد الهادي المنوني، ومحمد حجي، والكتاني وغيرهم. ونشير بدءا إلى أن هناك مادة وفيرة من المخطوطات والخزائن متفرقة في الصحراء الجنوبية والشرقية على حد سواء، تشكل رصيدا تراثيا هاما جدا في المغرب من مثل خزائن الأسرة الجعفرية، والبنانية بأقا، وخزانة الشيخ الوافي بن حماين الشيخ عابدين، ومخطوطات الزاوية القادرية لأهل مولاي دحمان بدوار عكاية بأقا، وخزانة الحاج محمد اللاعيشي بكلميم، وخزائن أسرة سيبويه ببوجدور، وخزانة محمد سيدين بن أحمد بن سيدي عبد الله الملقب ببر، وخزانة محمد فاضل الشيخ حسنا بن الشيخ مربيه ربه بالعيون، وخزانة الشيخ لاراباست بالعيون، وخزائن أبناء أبي السباع بالعيون، وخزانة زاوية الشيخ سعد بوه بمنطقة الترارزة، وخزانة الشيخ محمد فاضل بن عبيدي بأدرار، وخزانة الشيخ الوافي بن حمى بن الشيخ عابدين بأقا إقليم طاطا، وخزانة محمد الهاشم الوناس، وخزانة الزاوية القادرية لأهل ولاي دحمان، وخزانة محمد احضي الحرش بالمنطقة نفسها. وفي الصحراء الشرقية أذكر دار الكتب الناصرية بتمكروت، والمكتبة الخاصة لسيدي احماد نايت ناصر بتنغير، وخزائن أخرى نعد منها ولا نعددها مازالت تنتظر من ينفض عنها غبار الإهمال.

محتويات الخزائن الصحراوية:

مازلت الخزائن الصحراوية تضم نوادر الدفاتر مما لم تطله أيادي المحققين، وهي مشهورة كنار على علم إلا أن الاهتمام بالمكاتب تراجع بشكل سافر، واحتضان الثقافة والاهتمام بمواطنها أضحى أمرا محبذا بعد أن تعاورت على مراكز المعرفة أيادي الحدثان، وطالتها صولة النسيان. ومن هذه الخزائن التراثية جملة منها ترتبط بالشيخ "ماء العينين بن محمد فاضل بن مامين" المتوفى 1910م، وانتهت إلى أحفاده، ، وهي وحدها تظهر ثراء الخزانة الصحراوية، وأهميتها العلمية اللافتة للنظر.

ويكفى أن نركز على ما ألفته الأسرة المعينية لنؤكد هذا الكلام، ومن ذالك الأسفار المخبأة والتواليف المحجبة التي تعود إلى الشيخ النعمة ماء العينين أو إلى ولده مربيه ربه ماء العينين. وهكذا نجد خزانة الشيخ محمد فضل بن الشيخ مربيه ربه بن الشيخ ماء العينين شيخ قبيلة ماء العينين بالساقية الحمراء طافحة بهذا الصنف من الكتب، إذ مازالت تحت يده جملة وفيرة من المخطوطات القيمة غير المعروفة[1]، من مثل كتاب "وصية الرجال على النساء" للشيخ ماء العينين، بخط مريد الشيخ ماء العينين أحمد بن الشمس، وكتاب "نظم في أدب المريد"، للشيخ ماء العينين بخط الشيخ أحمد بن الشمس، و قصيدة الشاعر محمد بن الطلبة بخط الشيخ ماء العينين وكتاب "الأحاديث المتواترة" لمحمد المدني بن علي بن جلون الفاسي بخط الشيخ أحمد بن الشمس، وكتاب "تحفة الأصاغر في ذكر ما يخفى من النظائر" لأحمد بن محمد بن أحمد النجيبي

(1) هذا ما أفادنا به شيخ القبيلة نفسه

السباعي، وهو مريد من مريدي الشيخ ماء العينين، وكتاب "قراءة الإمام نافع" بخط الزين بن سيدي أحمد البكلي، منظومة في أسماء الله الحسنى للشيخ ماء العينين، و قصيدة في ألقاب الحديث وشرحه لسيدي أحمد بن فرج الإشبيلي، و"نظم في المنسوخ من القرآن" للسيوطي، و"تبيين الغموض على نعت العروض" للشيخ ماء العينين (كان حققه الباحث محمد عيناق)، و"تقريظ المرافق" للشيخ مربيه ربه المتوفى سنة 1942، و"تقريظ الرائق لكتاب الموافق" للشيخ مربيه ربه، وكتاب"تنبيه معاشر المريدين" للشيخ النعمة بن الشيخ ماء العينين، وكتاب "حجة المريد" لمحمد البشير البخاري، وكتاب "الأربعين حديثا في فضل لا إله إلا الله" للشيخ ماء العينين، وكتاب "إبراز اللآلىء المكنونات في أسماء الله الظاهرات والمضمرات" للشيخ ماء العينين، وكتاب "هداية من حار في أمر النصارى" للشيخ ماء العينين، حققه مربيه ربه، (كتاب يؤرخ لبداية دخول الاستعمار الإسباني)، وكتاب"دليل الرفاق على شمس الاتفاق" للشيخ ماء العينين(يجمع ما اتفق عليه واختلف عليه المذاهب الأربعة). (صدر منه الجزء 1و2 وما زال الثالث لم يصدر)، وكتاب "محمدة اللسان والفكر فيما يتعلق بالحمد والشكر "للشيخ مربيه ربه بن الشيخ ماء العينين (صدر دون تحقيق)، وكتاب" رحلة الشيخ مربيه ربه من كردوس إلى طرفاية "للشيخ مربيه ربه بن الشيخ ماء العينين (يذكر فيه كيف احتلت فرنسا الجنوب)، وكتاب "محمدي السكينة في الاعتدال والطمأنينة" للشيخ مربيه ربه.

مكتبة ماء العينين علي بن الشيخ مربيه ربه:

وهي من بقايا مكتبة مربيه ربه وقد كانت موجودة في طانطان ثم انتقل بها حفيد مربيه ربه الدكتور النعمة ماء العينين إلى تيزنيت ومن نفائسها[1]:

"صولة الكار وملجأ الفار في تحريم الإقامة مع الكفار" للشيخ مربيه ربه، وكتاب" الترغيب في بعض ما أعد الله للمجاهدين في سبيل الله "لمربيه ربه، وكتاب" لبانة المجاهدين وبغية الطالبين" لمربيه ربه، وكتاب " تسلية المؤمنين في عدم قبول أعمال المنافقين"لمربيه ربه، وكتاب "الفيضان فيما خص الله به لشهر رمضان" لمربيه ربه، وكتاب" الفيضان فيما خص الله به لشهر شعبان "لمربيه ربه، وكتاب" قرة العينين في كرامات شيخنا الشيخ ماء العينين" لمربيه ربه، وكتاب "منظومة في أسماء الرسل" لمربيه ربه، ومنظومة مطولة في شهداء بدر لمربيه ربه، و"سحر البيان في شمائل شيخنا ماء العينين الحسان" لماء العينين بن العتيق، وكتاب "بغية الأحكام" لماء العينين بن العتيق.

وهناك خزائن أخرى تضم دفاتر وأسفارا لم نعلم منها إلا الشيء اليسير على النحو الذي نجد عليه خزانة الشيخ الوافي بن حما بن الشيخ عابدين التي من مخطوطاتها كتاب "الطرائف والتلايد" في ستة أجزاء للشيخ المختار الكنتي، و"ألفية في اللغة العربية" للمؤلف نفسه، وكتاب" الصلاة الشريفة" للشيخ عابدين بن الشيخ سيدي محمد بن سيدي المختار، ومخطوط "الأحاديث الشريفة" لمحمد بن الشيخ سيدي المختار، وشرح لطيف بألفاظ الجرومية في أصول علم العربية، لخالد بن عبد الله بن أبي بكر الأزهري،

(1) أطلعنا على هذه المعلومات زميلنا الشاعر الدكتور النعمة ماء العينين كما رخص لنا جزاه الله خيرا بمعاينة مادية مخطوطات المكتبة بشكل مباشر.

و"تفسير القرآن الكريم" للشيخ عابدين بن الشيخ سيدي محمد بن سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار، و"خطب رمضان والأعياد الأضحى والفطر" لمؤلف مجهول.

و منها خزانة محمد الهاشم الوناس بطاطا التي تضم عددا من المخطوطات منها "بدر الغواص" لأبي إسحاق إبراهيم بن فرحون، وقاموس أمازيغي عربي لإبراهيم بن علي الامارتيني، وكتاب "الأحكام الشرعية" لأبي القاسم سلمون بن علي بن سلمون الكناني، وكتاب"التعريف والإعلام بما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام "للإمام السهيلي، وكتاب" التنوير في إسقاط التدبير" لأحمد بن محمد بن عطاء الله الإسكندري، و"نوازل الشيخ ابن هلال" لابن هلال، وكتاب" واسطة السلوك في سياسة الملوك" لموسى بن حمو الزياني، وكتاب "أجوبة الناصري في بعض مسائل البادية" لسيدي محمد بن ناصر الدرعي، وكتاب "شرح ألفية ابن مالك" لأبي زيد عبد الرحمن بن علي بن صالح المكودي، وكتاب "كفاية ذوي الألباب في فهم معونة الطلاب" للدادسي، وكتاب" شرح المقدمة الولغيسية" لأحمد بن أحمد البرنيسي الفاسي، وكتاب "شرح الإمام الخطابي على نظام ابن غازي" للإمام الخطابي، وأسفار أخرى كثيرة نعد منها ولا نعددها.

ومن هذه الخزائن خزانة محمد احظي الحرش، وفيها "شرح الضياء لسيدي خليل" لأحمد بن أحمد الوردي، و"الأحكام الشرعية" لأبي القاسم سلمون بن علي بن سلمون الكناني، ونسخة من ديوان المتنبي، وسراج الملوك لأبي بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان ابن أيوب الفهري الأندلسي المالكي الطرطوشى المعروف بابن أبى زندقة 520 هـ. ومخطوط

يتحدث عن أسماء الرسول ﷺ. ويوجد في الصحراء الشرقية ما يشفي الغليل في هذا الباب، إذ يكفي أن نتحدث عن نوادر دار الكتب الناصرية بتمكروت[1] لنستشعر جسامة هذا التراث، ففي هذه المكتبة ما يزيد عن 4200 مخطوط، منها مصحف مكتوب على رق الغزال[2] بخط أندلسي قديم، ونسخة من موطأ الإمام مالك[3] مكتوبة أيضا على رق الغزال بخط أندلسي، ونسخة من كتاب الشفا للقاضي عياض[4] بخط العالم الأندلسي محمد بن علي ابن عسكر الغساني المالقي فرغ من كتابتها سنة 624 هـ ونسخة من عقد الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة لابن الشاس عبد الله بن محمد السعدي المصري[5]، ونسخة من كتاب أدب الدنيا والدين للماوردي[6] ونسخة من لحن العوام فيما يتعلق بعلم الكلام[7]لعمر بن محمد بن خليل السكوني الإشبيلي نزيل تونس المتوفى سنة 717 هـ، ونسخة من "الشذور الذهبية والقطع الأحمدية في اللغة التركية "[8]، وكتاب سراج الإسلام[9] لأبي الوليد سليمان بن خلف التميمي الباجي المتوفى عام 474

(1) كان قد فهرس المكتبة محمد عبد الهادي المنوني: ونشرت وزارة الأوقاف هذا الجرد في 1405 هـ1985م.

(2) دار الكتب الناصرية تمكروت رقم: 1.

(3) دار الكتب الناصرية تمكروت رقم: 4.

(4) دار الكتب الناصرية تمكروت رقم: 138.

(5) دار الكتب الناصرية تمكروت رقم: 1103.

(6) دار الكتب الناصرية تمكروت رقم: 1185.

(7) دار الكتب الناصرية تمكروت رقم: م 2376.

(8) دار الكتب الناصرية تمكروت رقم: 2157.

(9) دار الكتب الناصرية تمكروت رقم: م 1620.

هـ، وكتاب شرح العقيدة المرشدة[1] لابن تومرت لمحمد بن أحمد بن إسماعيل بن النقاش لمؤلف غير مذكور. وهناك كتب أخرى قيمة جدا يضيق المجال عن ذكرها.

محاولة في الدراسة الأثرية:

وأما الدراسة الأثرية التي أهدف إلى إظهار صورتها المنهجية بشكل واضح من خلال هذه المادة، فتنبني على تناول المخطوط على أساس أنه قطعة أثرية قابلة للدراسة من منطلق أثريتها إذ سنتناول، في موضوعنا، الكتاب المخطوط من حيث مكونات الورق، أو المادة المكتوب فيها، والطي وصناعة الكراريس، والترتيب (أي مسألة كتابة النص في علاقته الزمنية بطي الفرخة أو صناعة الكراسة)، وتركيب الصفحات (أو دراسة التناسبات الممكنة بين درج أو أدراج النص وطرر الصفحة)[2]، والخزم، والتسطير، والنمنمة، والزخرفة، والتذهيب، والتسفير، أو التجليد بتعبير أهل المشرق.. وأهدف من جهة أخرى، دراسة التقاييد التي تعنى بالنساخة في المخطوط بكل ما تحمله كلمة "نساخة"[3] من معنى، إذ إن هذا المصطلح يعني بداية النص، ونهاية النص، وحرد المتن، والوقف، والإجازة، والقراءة، وقيد التملك، وقيد البيع، وقيد الشراء، والأدعية، والعبارات الشاردة، والفوائد، وقيود الصيانة،

(1) دار الكتب الناصرية تمكروت رقم: 1627.

(2) عادة ما تكون الطرة الداخلية petit fond هي الطرة الصغرى ضمن طرر النص، تليها طرة الرأس ثم الطرة الخارجية وأخيرا طرة الذيل أو الطرة التحتانية بتعبير الرفاعي في كتابه: "حلية الكتاب"

(3) يقصد بالنساخة في علم المخطوطات كل ما كتب في المخطوط، وليس من النص بمفهومه الدقيق. ويقابله باللغة الفرنسية مصطلح: transcription.

والسرلوحات أو الفضاءات الاستهلالية المزخرفة والمكتوبة، وعناوين الأبواب، وعناوين الفصول، وأنواع الترقيم، والحك، والمحو، والطلس، والإحالة، والتشطيب، وما إلى ذلك. وأود أن أشير إلى أن هذا الهدف المنهجي إنما يكتمل باتساع رقعة المادة المدروسة، وتوخيا للدقة فإنني سأكتفي بستة مخطوطات في هذه المحاولة المنهجية؛ خمسة منها من مكتبة الدكتور النعمة بن علي بن الشيخ مربيه ربه ماء العينين، نظرا لجدتها وعدم تداولها بين الناس، ونسخة من دار الكتب الناصرية. وتنخلت المخطوطات المذكورة من جملة أسفار هي أكثر منها إحالة على المخطوط الصحراوي وعاء، وتسفيرا، ومادة، وخطا، وتركيب صفحات وهي نسخة من"قرة العينين في كرامات الشيخ ماء العينين" للشيخ مربيه ربه، وكتاب "الترغيب في بعض ما عد الله للمجاهدين في سبيل الله" للشيخ محمد المصطفى مربيه ربه، وكتاب" صولة الكار"، ونسختين من "ملجأ الفار في تحريم الإقامة مع الكفار" للشيخ محمد المصطفى مربيه ربه، وكتاب لبانة المجاهدين وبغية الطالبين للشيخ مربيه ربه، ونسخة من موطأ الإمام مالك بالخزانة الناصرية.

نشير في البداية إلى أن النسخ المدروسة كلها كتبت على الورق الغني بمادة السيلولوز، باستثناء نسخة الموطأ المكتوب على الرق، وهو ما تعكسه ليونته من جهة وصموده أمام حدثان الدهر من جهة أخرى. ولعل بقاء المادة صامدة يعود فوق هذا إلى المناخ الصحراوي الجاف الذي، وإن كان غير مناسب هو أيضا للورق، فإنه أقل خطورة من الرطوبة التي تؤدي إلى اللثغ، وتحلل الحبر، وتكاثر الجراثيم، والعث، والأرضة. ونشير، علاوة على هذا، إلى وجود علامة الفيلغران الأمر الذي يؤكد حداثة هذا الورق، كما هو الأمر في نسخة الأولى من "صولة الكار". أما النسخة الاستثنائية فقد كتبت على مادة الرق وتعود إلى

القرن الخامس الهجري (تقاييد السماع بها تعود إلى 483 هـ). وهذه النسخة مبتورة وناقصة وتوجد في ثلاثة أجزاء يسلكها سفر واحد. ومع ما صابها من خرم، فإن المادة المتبقية منها مازالت صامدة ومقاومة لحدثان الدهر نظرا لمميزات الرق في الصمود.

أما ما يخص الطي وصناعة الملازم، فنحن نلاحظ وجود ما يسمى "الأحادية" أي المخطوط المكون من كراسة واحدة من مثل النسخة الأولى من "صولة الكار"، وهناك الثنائية[1] على النحو الذي توجد عليه نسخة الموطأ. والثلاثية[2]. وتهيمن الرباعية على صناعة الكراسة في هذه المادة المدروسة وهي الكراريس المكونة من أربع صحائف مزدوجة.

أما ما يخص تركيب الصفحة، فنلاحظ غياب التراتبية في هذه الصنعة، الأمر الذي ينفي عن هذه الأسفار صفة الاحترافية، وخاصة في السفر الأول من"صولة الكار". ونسخة "لبانة المجاهدين". ونسخة "الترغيب في بعض ما عد الله للمجاهدين في سبيل الله". إذ إن الطرر في هذه النسخ عشوائية، وشبه غائبة أحيانا. وربما نفسر هذا الأمر بكون هذه النسخ قد صنعت بطريقة فردية وفي عهد قريب، ومع ذلك نلاحظ التراتب المحترفي ظاهرا في نسخة" قرة العينين"، إذ إن الهامش الداخلي هو الأصغر يليه هامش الرأس، ثم الهامش الخارجي، وأخيرا هامش الذيل. وهو الأمر الذي نلاحظه أيضا في نسخة الموطأ في كل أجزائها.

ونلاحظ افتقاد هذه المادة إلى أغلفتها الأصلية، ووجود أغلفة جديدة

---

(1) ينظر النسخة الثانية من" صولة الكار". إذ تتكون من رباعيتين.

(2) تتكون نسخة" لبانة المجاهدين. " من ثلاث كراريس رباعية.

لاحقة على مجموع الكراريس.

النساخة:

تعتبر النساخة الشق الثاني للحفريات في علم المخطوطات، وقد اعتبرتها شخصيا نوعا من الحفر النسقي[1]. والمقصود بالنساخة ليس هو الفهم التراثي الأولي لها الذي ينصرف إلى الكتابة والتدوين، وإنما هي غير ذلك، والمقصود بها كل ما يرتبط ويحف بالمتن المكتوب وليس منه، أي كل المعطيات النصية الموجودة في الوعاء المدروس، والتي لا تنتمي إلى المكتوب بمعناه الدقيق.

أول ملاحظة نلاحظها على الخط المغربي التي كتبت به هذه النسخ هي الثخانة، وهذه ميزة من مميزات الخط المغربي الصحراوي، والميزة الثانية أنه واضح ومقروء الأمر الذي يجعله مشابها للخط المعمول بها في الصحراء الكبرى. أما نسخة الموطأ فهي مكتوبة بخط أندلسي قديم ما زال محتفظا بمعالم الخط الكوفي الذي انحدر منه.

البداية والنهاية:

نلاحظ في بدايات النصوص المعينية التبئير للمؤلف في الإشارة الأولى على النحو الذي نجد عليه بداية " قرة العينين في كرامات الشيخ ماء العينين" إذ ورد فيه ما يلي:

"بسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله وصلاة الله على محمد رسول الله ﷺ يقول عبيد ربه وأسير ذنبه المعترف بذنبه وخطئه المنادي لربه في عفوه وعطائه محمد المصطفى مربيه ربه".

---

(1) تنظر رسالتي لنيل دبلوم الدراسات العليا – "مدخل إلى علم المخطوطات" "لجاك لومير" ترجمة وتقديم في الكوديكولوجيا، الرباط – 1997م

وجاء في بداية "صولة الكار": "بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على النبي الكريم يقول عبيد ربه محمد المصطفى مربيه ربه أناله الله بشكره ما يحب ابن شيخه الشيخ ماء العينين غفر الله لهما وللمسلمين آمين".

ونلاحظ عموما أن نهاية النصوص عبارة عن حمدلة كما ورد في النسخ كلها، ولا وجود لحرد المتن بالشكل الذي عرف به من كونه يأتي على شكل مثلث، وإنما وجد بشكل خطوط متساوية مع النص السابق كما هو الأمر في حرد متن النسخة 2 من" صولة الكار". إذ ورد فيه ما يلي: "انتهى على يد كاتبه ماء العينين بن العتيق في 23 من جمادى الأولى عام 1351 هـ عرفنا الله خيره وخير ما بعده ووقانا ضيرهما آمين. " ويجب أن نميز بهذا الصدد بين نهاية النص الذي ينتهي بالحمدلة، وحرد المتن الذي يتضمن معلومات النسخ من مثل ما جاء في النسخة الثانية من "صولة الكار". حيث جاء في نهاية النص ما يلي:

"انتهى على يد من تفضل الله به عليه عبيد ربه محمد المصطفى امربيه ربه. في ليلة الاثنين العاشرة من صفر عام أربعة وأربعين بعد ثلاثمائة وألف. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين " وجاء بعد نهاية النص حرد المتن مباشرة ورد فيه ما يلي:

"انتهى التأليف المبارك بحمد الله تعالى وحسن عونه وتوفيقه الجميل على يد كاتبه الذليل الراجي من ربه النوال الجزيل عبيد ربه وأسير ذنبه العربي بن إبراهيم متعه الله بأنواع النعيم ضحوة الأربعاء عام ستة وأربعين وثلاثمائة وألف أرانا الله خيره وخير ما بعده ووقانا ضيرهما آمين يا رب العالمين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين"

وفي حرد متن "لبانة المجاهدين". ما يلي: "على يد ناسخها عفا الله عنه لنفسه ما العينين".

ومن التقاييد التي كتبت على طرر هذه النسخ ما كتب آخر نسخة "لبانة المجاهدين":

"كتبت وقد أيقنت لا شك أنني ستفنى يدي غدا ويبقى كتابها

وأيقنت أن الله سائلها غدا يا ليت شعري ما يكون جوابها

ويوجد التقييد الآتي:

"ومما يقرأ عند النوم الفاتحة أربعا وقل هو الله أحد ثلاثا والباقيات الصالحات خمسا وهي سبحان الله والحمد لله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم الذي لا إله إلا هو والاستغفار عشرا ولفظة الحي القيوم وأتوب إليه والصلاة على النبي-ﷺ- عشرا، ولفظها اللهم صل على محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم. ومن بعد هذا فكأنما تصدق بأربعة آلاف دينار وقرأ القرآن كله وحج واعتمر".

ومما كتب في آخر النسخة نفسها:

أنت إلهي أنت ربي ولا شريك لك أنت حسبي

أنت الذي أرغب فيك لا سواك دنيا وأخرى

وتوجد على ظهر نسخة موطأ مالك[1] الموجودة بخزانة الناصرية بتمكروت تقاييد السماع والمقابلة جاء في نهاية الجزء الأول منها ما يلي:

"بلغت المقابلة والسماع - بحمد الله وعونه - على الفقيه أبي عبد الله بن الطلاع رحمه الله بمدينة قرطبة " وبعد هذا "انتهى السماع والمعارضة على الفقيه أبي علي حسين بن محمد رحمه الله بمدينة قرطبة حرسها الله في صفر سنة ثلاث وثمانين

(1) دار الكتب الناصرية تمكروت رقم: 4

وأربعمائة ". وفي نهاية الجزء الثاني أيضا كتب ما يلي:

"بلغت المقابلة والسماع - بحمد الله وعونه - على الفقيه أبي عبد الله بن الطلاع ﷺ ".

وجاء بعد تقييد المقابلة هذا تقييد العرض وهذا نصه "انتهى السماع والعرض على الفقيه الحافظ أبي علي حسين بن محمد الغساني الجياني ﷺ" وهي معطيات نساخية تسهم بشكل أو آخر في توثيق المخطوط ورفد تاريخ النص، مع أن هذه المعطيات في حاجة إلى دراسة شاملة، تهتم بكل العناصر الأركيولوجية في المخطوط من أجل وضع اليد على مواطن التزوير في الصناعة أو التحريف في الكتابة الأمر الذي يؤكد حاجة المادة المخطوطة إلى مزيد من الدراسة والتقصي.

نتمنى أن ننال، بهذه المعطيات الأولية التي هي أقرب إلى الوصف منها إلى التركيب، حظا من واقع المخطوط الصحراوي في العصر الحاضر، وما توفيقنا إلا بالله.

وقف الكتب والمكتبات بالمغرب

وقف الكتب والمكتبات بالمغرب

أضحى وقف الكتب عنصرا أساسا في البحث المادي المرتبط بالمكتبة. ومرد ذلك إلى أن مهايع البحث في المخطوطات صارت مرتبطة بأمور منهجية جديدة من شأنها تيسير الاشتغال الحفري القمين بالإجابة عن عدد من الأسئلة من مثل من أين جاء هذا المخطوط؟ وكيف جاء هذا الكتاب؟وكيف صنع؟ ومن هم صانعوه؟ ومتى صنع؟؟. ولم تبق حبيسة الجهبذية الفقهية المشتغلة حصرا بمحتويات الكتاب، ولعل القارئ سيستغرب لنوع هذه الأسئلة، وعلاقتها بالموضوع المذكور، ولكن ستزول الغرابة بمجرد تبين ملامح التداخل بين هذا المجال، ومفهوم الحفر على المستوى المنهجي، فالقصد في عموم الأحوال هو تعقب تاريخ السفر في صورته المادية البحتة، وفي تغيراته الزمنية. والوقف باعتباره أثرا ماديا مكتوبا هو صفحة من صفحات السفر التي تتجاوز لحظتها، لتخبرنا بصفحات أخرى على نحو الزمن، والمتملكين الأوائل، والأحوال الاقتصادية في زمن الوقف إلخ. وبعبارة أخرى قد يكون الوقف المكتبي، بصرف النظر عن كونه تقييدا تاريخيا يعنى بقضية فقهية صرفة، مادة دسمة لنوع آخر من البحث ألا وهو استنطاق لا شعور المكتوب الخارجي. وأقصد بالمكتوب الخارجي ما كتب في الكتاب وليس من صلب النص بمفهومه الصميم؛ على النحو الذي نجد فيه إشارات خارجة عن نص في شرح الألفية مثلا مشكلة لهذا المعطى النصي الثانوى أو الخارج نصي. إن هذا الهدف الدقيق في موضوع وقف الكتب هو الذي نتغياه بهذا العمل، ولا نقول إنه عمل تركيبي بالشكل الذي صورناه منهجيا في هذه الصدارة، وإنما

هو أصواء منهجية وفقهية وتاريخية ومادية بحتة عن الوقف المكتبي، أحببنا أن ندونها تمهيدا لتركيب مستقل في حفريات الوقف المكتبي، وبالرغم من أن هذا الأمر قد أشبع بحثا وتنقيبا، إلا أننا نسجل أن هذا الاشتغال كان في صورته المنهجية شبه مغتصب أو منسلك في اهتمامات أخرى. ويحتم علينا الواجب العلمي أن نشير إلى هذه المادة الببليوغرافية التي اخترقت هذا الموضوع، وقالت فيه بأشكال ربما قد تكون مختلفة عما نريده. وهكذا فقد قال في هذا الموضوع العلامة محمد العابد الفاسي الذي كان محافظا على مكتبة القرويين بفاس ردحا من الدهر في المنتصف الأول من القرن العشرين، وجمع في اشتغاله بالعمل المكتبي جملة من الفوائد التاريخية عن الخزانة المغربية، وخاصة خزانة القرويين، أودعها في كتيب صغير أسماه: "الخزانة العلمية بالمغرب"[1]. وعرض فيه لمقتطفات من الوقف على هذه المكتبة. إضافة إلى أنه أورد فيه مجموعة من الوثائق الوقفية المرتبطة بمكتبة القرويين، والتي صنعها سلاطين المغرب منذ عهد المرينيين، ويعتبر تصنيفه هذا مرجعا أساسا للوقوف عن كثب بهذه المادة الوقفية في صياغتها، وبنائها، وعناصرها. وتحدث عن هذا الموضوع العلامة الجهبذ سيدي محمد بن عبد الهادي المنوني رحمه الله في كتابه: "دور الكتب في ماضي المغرب"[2]، حيث أشار إلى تحبيس الكتب على معاهد العلم بالمغرب، وتحبيس الكتب على الحرمين الشريفين والمسجد الأقصى، وتحبيس الملوك والعلماء على كبريات الخزائن من مثل القرويين وغيرها.

وكان حديثه عن هذا الموضوع في هذا الكتاب القيم ثانويا بالمقارنة مع

---

(1) الخزانة العلمية بالمغرب، محمد العابد الفاسي، 1370هـ-1960 م

(2) دور الكتب في ماضي المغرب، منشورات الخزانة الحسنية: 2005 هـ

مواضيع أخرى ذات قيمة كبرى في الأبحاث المكتبية، إذ يعتبر كتابه هذا عصارة اشتغال تاريخي وميداني طويل ومثمر بالمكتبات المغربية في صورتها التاريخية، وفي أطلالها المتبقية. كما اشتغل بهذا الموضوع الباحث يحيى محمود ساعاتي في كتابه: "الوقف وبنية المكتبة العربية"، وقد خصص للمكتبة المغربية حيزا مقبولا من خلال حديثه عن دار العدة في فجيج، والخزانة العلمية الصبيحية بسلا[1].

ثم أدلى الدكتور أحمد شوقي بنبين بدوره في هذا الباب، إذ عرض لهذا الموضوع في كتابه: "تاريخ خزائن الكتب بالمغرب"[2]، وناقش فيه اختلاف آراء الفقهاء بخصوص وقف المخطوطات، ونوعية الكتب الموقوفة، ومختلف ضروب الوقف في هذا المجال، وبنية وقف المخطوطات.

وتناول الأمر أيضا في كتابه: "دراسات في علم المخطوطات والبحث الببليوغرافي"[3]، حيث تعرض في هذا الكتاب إلى تاريخ هذه الظاهرة في تاريخ الخزانة المغربية. والجديد في اشتغال أحمد شوقي بنبين بهذا الموضوع هو إرهاصه بالنظرة الجديدة إلى هذا الموضوع، على أساس أنه باب قيم في علم المخطوطات، حيث بين في "دراسات في علم المخطوطات".

هذا الأمر بشكل جلي، وجعل الوقف والتعقيبة، وخوارج الكتاب، من

---

(1) "الوقف وبنية المكتبة العربية"، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض؛ 1408 هـ1988.

(2) "تاريخ خزائن الكتب بالمغرب" ترجمة مصطفى طوبي، منشورات الخزانة الحسنية 2003

(3) أحاط بالظاهرة تاريخيا في المغرب في هذا الكتاب منشورات الخزانة الحسنية الطبعة الثانية: 2005 م

صميم هذا العلم، إلا أنه بقي حبيس الاشتغال الفقهي بالموضوع. وأذكر أيضا الباحث السعيد بوركبة، الذي تناول هذا الموضوع في كتابه: "دور الوقف في الحياة الثقافية في المغرب في عهد الدولة العلوية"[1] وعرض في كتابه لمجموعة من الخزائن الموقوفة في تاريخ المغرب، ولم يفته الحديث أيضا عن مجموعة من الكتب التي أسهمت في تكوين المكتبات الكبرى من مثل مكتبة القرويين.

ثم تناولت موضوع الوقف المكتبي أيضا الدكتورة لطيفة بنجلون العروي بشكل مفرق في كتابها الذي كتبته بالفرنسية عن المكتبات بالمغرب[2]، وذلك في إطار الإشارة إلى مجموعة من الخزائن المحبسة والمخطوطات التي حبسها السلاطين والوزراء والأعيان على الخزائن الكبيرة، من مثل القرويين بفاس. وفي هذا الباب أيضا تكفلت لجنة علمية من وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالوقوف على المكتبات الحبسية بالمغرب، ونشرت ذلك في كتاب بعنوان: "دليل مخطوطات الخزانات الحبسية"[3]، وتمكنت اللجنة من الوقوف على حوالي ثلاث عشرة خزانة حبسية بالمغرب تحوي حوالي خمسة آلاف مخطوط كلها وضعت للمنفعة العامة في الجوامع والمدارس العتيقة. وقال في هذا المجال أيضا مصطفى بنعلة في كتابه "تاريخ الأوقاف الإسلامية في عهد

---

(1) منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية 1417 هـ1996م

(2) les bibliothèques au maroc, Editions Maisonneuve et larose Paris 1990.

(3) دليل مخطوطات الخزانات الحبسية، إعداد وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية: 1422 هـ2001م

السعديين"[1]، وذلك بتخصيصه مطلبا للحديث عن الوقف على خزانات المساجد على هذا العهد. أما محمد بن عبد العزيز بن عبد الله فتناول الظاهرة في كتابه: "الوقف في الفكر الإسلامي"[2]. إلا أنه مال إلى التعميم في تناول الظاهرة، ولا يرتبط بها إلا من خلال معالجة بعض الظواهر المكتبية أصلا من مثل المشروعية، والخط، والنظام الوقفي.

أما خارج بلد المغرب الأقصى فهناك أبحاث جادة ومفيدة جدا، ولكنها مرتبطة بالأقاليم الموجودة فيها، وقد تكون فاتتنا منها أدبيات كثيرة، وخاصة ما يتعلق براهنية الوقف المكتبي، وهي تهمنا من حيث القضايا النظرية الكبرى في هذه الممارسة الخيرية التي توثقها الكتب في كل بقاع الدنيا. ونذكر من ضمن الأعلام الذين تناولوا الظاهرة خارج المغرب يوسف العش، حيث تعرض للظاهرة في إطارها الفقهي، وفي إطارها المكتبي في كتابه: "دور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام في العصر الوسيط"[3]. وهو كتاب، كما نلاحظ من عنوانه، متخصص في البلدان المذكورة. وتناول هذه الظاهرة أيضا سليمان بن عبد الله بن حمود أبا الخيل في كتابه: "الوقف وأثره في تنمية

---

(1) تاريخ الأوقاف الإسلامية بالمغرب في عهد السعديين من خلال حوالات تارودانت وفاس، تأليف الدكتور مصطفى بنعلة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المملكة المغربية: 1428-2007 م

(2) الوقف في الفكر الإسلامي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية 1416هـ 1996م.

(3) ترجمه عن الفرنسية نزار أباظة ومحمد صباغ بيروت، دار الفكر المعاصر: 1411 هـ 1991م.

موارد الجامعات"[1]، إذ أفرد للوقف مطلبا خاصا بذلك، وحاول الباحث أن يؤطر الظاهرة نظريا، مبديا اختلاف الفقهاء إزاءها، إذ وقف على ثلاثة أقوال في هذا الباب؛ القول الذي يجوز وقف الكتب مطلقا، والقول الذي يجوز وقف الكتب إذا جرى العرف بوقفها، والقول الذي لا يجوز وقف الكتب مطلقا[2]. وعموما نقول إن هذه المادة الببليوغرافية التي لامست موضوع وقف الكتب في الثقافة العربية بقيت حشومة في اختراق البعد الحفري للظاهرة، وركزت بالمقابل على الإشكالات الفقهية العامة المرتبطة بالموضوع. اللهم إلا ما يتعلق بالكتب التجميعية التي هدفت إلى تجميع المادة الوقفية وعرضها أمام القارئ، إذ إن أهمية هذه الكتب تكمن في تيسير الاشتغال أمام الباحثين المتسلحين بالمنهج لتعقب الصورة الحفرية للظاهرة في أبحاث أخرى.

إن ما نتوخاه من الوقف ليس هو ما سننثره مجملا في هذه الأصواء العامة، وإنما قصدنا الإيعاز إلى إمكانية التركيب من خلال هذه المادة النصية أيضا. أي أن علمية الدراسة الوقفية هي الأمر المتغيى، إلا أننا نرجئ الأمر إلى توفر الشروط العلمية لذلك، وأقصد بالشروط العلمية المادة الوقفية الموجودة في سواكف الخزائن وبطون الأسفار. وأعتبر أن هذه المادة هي العنصر الأساس في الدراسة، لأن النتائج يجب أن تكون مترتبة عن هذه المادة. ثم إن هدفنا الجوهري بعد عملية التجميع هو استخراج أساسيات البناء الوقفي، لأن ذلك

---

(1) منشورات الإدارة العامة للثقافة والنشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية: 1425هـ 2004م

(2) الكتاب المذكور صص: 223 -239

قد يكون صوة على حضارة معينة، أو عنوان حقبة زمنية، أو إشارة إلى توجه فقهي محدد إلخ.

1- مفهوم ومشروعية وقف الكتب والمكتبات:

نبادر إلى القول، في صدارة حديثنا عن هذا الجانب، إننا إنما نتنور بما قاله الباحثون في هذا الباب، إذ للعلوم الشرعية أعلامها وفقهاؤها. وإنما نوعز بنظرة منهجية جديدة تخرجنا مما ألفناه في الاشتغال التراثي المعروف إلى صورة من صور الحفر تنضاف إلى اهتمامنا بالمكتبات والمخطوطات، واهتمامنا بالنساخة بمفهومها الواسع، باعتبارها عنصرا أساسا في علم المخطوطات. وضمنها نهتم بالوقف، والإجازة، والقراءة، وحرد المتن، والتملك، والفوائد الكثيرة التي تحبل بها طرر الأسفار. وحتى الألى تحدثوا قبلنا في هذا الأمر، كانوا يستندون بشكل كامل على آراء المتخصصين، إذ إن وقف الكتب والمكتبات إنما يرضخ للحد الشرعي المخصوص بالمجال، والعين إنما تنصرف هنا إلى الكتب والمكتبات، والإشكال الذي تحصل للفقهاء في هذا الباب إنما هو في طبيعة الكتب، وغياب نص شرعي مخصوص بالمادة المدروسة بشكل مباشر. وبالرغم من وجود تاريخ حافل بهذه الظاهرة الخيرية، لم يحظ وقف المخطوطات والمكتبات بالقبول والتجويز إلا بعد أخذ ورد طويلين[1]، أو إنه بقي معلقا بين التجويز، والتجويز المشروط، والرفض[2]. وكان التجويز متدرجا بدءا بالنصوص

---

(1) هذا ما ذهب إليه الأستاذ أحمد شوقي بنبين في كتابه: "تاريخ خزائن الكتب بالمغرب" ترجمة مصطفى طوبي، منشورات الخزانة الحسنية بالرباط؛ 2003 م، (صص: 194-221).

(2) يحاول الدكتور سليمان بن عبد الله بن حمود أبا الخيل في كتابه القيم "الوقف وأثره في تنمية

المقدسة التي هي المصاحف، وانتهاء بالكتب المعرفية العامة. ومرد هذا الأمر أن الوقف في حدوده الفقهية ارتبط بالأشياء التي لها صفة الدوام، أما الكتب فإنها معرضة للبلى والاندثار، وهي من باب وقف المنقول. قال عبد الله الجبوري بهذا الصدد: "وقف المنقول الذي جرى بوقفه كالكتب من الأصل العام في الوقف، وهو أن يكون الوقف مؤبدا فلا يصح إلا في العقار لا في المنقول، وجعلوه من باب الاستحسان، وسنده المعروف، ومن هنا نشأ وقف الكتب، وطفق المسلمون وأهل الخير والإحسان يوقفون الكتب نفعا للناس، وحبا لعمل الخير"[1].

ولذلك فقد ارتبط في شرعيته بالعرف، ولم يقف الفقهاء عند إمكانية وقف الكتب والمكتبات بشكل عام، بل قالوا حتى في نوعية الكتب الصالحة للوقف. قال الدكتور سليمان بن عبد الله بن حمود أبا الخيل: "وكلام الفقهاء رحمهم الله على وقف الكتب مقصود به كتب العلم الشرعي ككتب التفسير والحديث وعلومه، والعقيدة والفقه، والدعوة، وغيرها. كذلك الكتب التي تكون وسيلة إلى فهم العلم الشرعي، ومعينة على فهم نصوص الشرع،

موارد الجامعات" أن يرسم موقف الفقهاء من وقف الكتب في ثلاثة أقوال؛ قول يجوز وقفها مطلقا سواء تعارف الناس على وقفها أم لا وذهب هذا المذهب المالكية والشافعية والحنابلة، وقول يجوز وقف الكتب إذا جرى العرف بوقفهاوتعامل الناس بذلك وذهب هذا المذهب محمد بن الحسن وزفر من الحنفية، وقول لا يجوز وقف الكتب مطلقا وهذا ما ذهب إليه أبو حنيفة. منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية 1425 هـ2004 م صص: 223-239.

(1) مكتبة الأوقاف العامة لعبد الله الجبوري نقلا عن الوقف وبنية المكتبة العربية يحيى محمود ساعاتي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1408 هـ1988 م ص: 31.

ككتب اللغة العربية وعلومها، أو الكتب التي تتصل بأحوال المسلمين، والاستفادة منها ككتب التاريخ ونحوها. وأما كتب العلوم النظرية البحتة كالكيمياء والحساب وغيرها، فهذه لم أقف على من نص في وقفها، ولكن مقتضى كلام الفقهاء في تقييد الجواز بأن لا تكون كتبا محرمة، فإن لم تكن كذلك جاز وقفها"[1].

وكيفما كان الأمر فقد أسهم هذا النوع من الوقف في إثراء خزائن الكتب في القديم بشكل لم يسبق له نظير في الحضارات البشرية، وسبب ذلك تمثل البعد الديني في إقامة هذا السلوك الحضاري الكبير. ولسنا مسترسلين في الحديث عن مفهوم الوقف وشرعيته في الكتب والمكتبات، فذلك مجال المتخصصين في العلوم الشرعية. وقد قال فيه العلماء بما يكفي. وإنما نحن قائلون في جوانبه التاريخية المتعلقة ببلد المغرب، وقائلون أيضا في معطياته الحفرية من منطلق أن الوقف هو عنصر يندرج في إطار النساخة[2]،

---

(1) الوقف هو إجراء شرعي يتخلى عبره الواقف عن شيء من ممتلكاته لهدف خيري أو هو شرعيا" المنع من التصرف في العين على التأبيد وجعل الثمرة في سبيل الخير الوقف وأثره في تنمية موارد الجامعات، تأليف الدكتور سليمان بن عبد الله بن حمود أبا الخيل وكيل جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية منشورات الإدارة العامة للثقافة والنشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية: 1425 هـ2004م ص67.

(2) علم المخطوطات في بعض جوانبه هو العلم الذي يعنى بالنساخة في المخطوط transcription بكل ما تحمله كلمة "نساخة"من معنى، إذ إن هذا المصطلح يعني بداية النص، ونهاية النص، وحرد المتن، والوقف، والإجازة، والقراءة، وقيد التملك، وقيد البيع، وقيد الشراء، والأدعية، والعبارات الشاردة، والفوائد، وقيود الصيانة، والسرلوحات أو الفضاءات الاستهلالية المزخرفة والمكتوبة، وعناوين الأبواب، وعناوين الفصول، وأنواع الترقيم، والحك، والمحو، والطلس، والإحالة، والتشطيب، وما إلى ذلك

وقائلون أخيرا في صورته الاجتماعية، وخاصة في علاقة هذا الوقف التراثي بشروط عصرية من صلب المجتمع المعاصر. ويمكن أن نجازف بالقول إن الوقف قد أسهم بنصيب الأسد في تداول الكتاب في الأعصار القديمة، ومرد ذلك هو التسابق إلى الخيرات والطمع في مرضاة الله تعالى، وكان من شأن الأكابر عند موتهم توقيف الكتب حتى إن المكتبات المحبسة كانت دفاترها تعد بالآلاف. ذكر ياقوت الحموي في معجمه أنه ترك مرو الشاهجان أشهر مدن خراسان سنة 616 هـ، وفيها عشر خزائن موقوفة لم ير في الدنيا مثلها كثرة وجودة. وقد فصل أخبارها وأخبار واقفيها، وذكر أن في واحدة منها إثني عشر ألف (12000) مجلد، وأنه أخذ علمه منها[1]. ومهما يكن من أمر، فإن وقف الكتب بالمغرب لا يحتاج إلى تنظير أو حدس، فالأسفار الطافحة في الخزائن المغربية، وسواكف الخزائن التراثية تشهد على هذا الأمر بشكل جلي وواضح. وقد تعرض مجموعة من الباحثين لهذه الظاهرة بنسب متفاوتة وبكيفيات مختلفة تتآلب في رسم صورة الوقف المكتبي في المغرب، ناهيك على العديد من النصوص أو الوقفيات الناطقة في ظهور الأسفار أو وثائق مستقلة كما هو الأمر عن تحبيس المكتبات.

من معطيات تكون في طرر الأسفار وليست من صميمها. ينظر كتاب: مقالات في علم المخطوطات، مصطفى طوبي، منشورات دار القلم الرباط 2000 م ص: 8.

(1) معجم الأدباء ياقوت الحموي طبعة مصر 1925م ج: 5 ص: 114.

2- تاريخ وقف الكتب والمكتبات في المغرب:

إذا نظرنا في محتويات المكتبات الكبرى في كل بلدان المعمور ألفينا أن كل كتاب منها هو في جوهره تاريخ عجيب محمل بالكثير من الدلالات الحضارية والثقافية اللافتة للنظر، لاشك أنه مر عبر كل مراحل صناعة الوراقة العربية، ثم لاشك أنه مر عبر أشكال من التملك أو الشراء، ثم قد يكون مادة للإرث في فترة من عمره. وقد يصادف شكلا من أشكال الوقف المتعارف عليها في الكتب. إن النظرة إلى الكتاب وفق المنظور الحفري سيعفينا من التدخل السافر أحيانا في تفسير الظواهر المرتبطة بالكتب والمكتبات. إن تاريخ وقف الكتب والمكتبات في المغرب هو أمر مازلنا في حاجة ماسة إلى تبينه عبر العودة إلى الوثائق، وظهور الأسفار، والكراريس أكثر من كتب التاريخ، لأن التاريخ بمفهومه الصحيح أحجم عن القول في مثل هذه الأمور.

لا نعرف بالضبط بداية وقف المكتبات في المغرب، وإنما نطمئن إلى بعض الاجتهادات التي صدرت عن بعض المتخصصين في الكتب كالرأي الذي ذهب إليه الأستاذ أحمد شوقي بنبين من أن وقف الكتب والمكتبات يمتد إلى زمن الأمويين يقول بهذا الصدد: "والمرجح عندنا أن وقف الكتب قديم في المغرب، فقد ثبت أن خلفاء بني أمية بالأندلس، وعلى الأخص منهم عبد الرحمن الناصر وابنه المستنصر صاحب الخزانة المشهورة كانوا يرسلون مجموعات من الكتب لإغناء خزانة القرويين ونشر العلم بحاضرة فاس، والطابع العام الذي كانت تتسم به هذه المكتبة يحملنا على الاعتقاد بأن الكتب المهداة من طرف الخليفتين كانت في إطار الوقف. ولهذا يحتمل أن يكون وقف

الكتب في المغرب أقدم مما يظن"[1]. ولكننا نعثر على نص في كتاب: "اختصار الأخبار. "يظهر أن الأمر قد حصل على عهد الدولة المرابطية، فقد كانت مكتبة عالم سبة "الشاري" هي أول مجموعة محبسة على أهل العلم[2] في المغرب. يقول عنها المنوني رحمه الله : "وهي منسوبة لمؤسسها أبي الحسن علي بن محمد الغافقي السبتي المعروف بالشاري (579هـ-649 هـ). كان شغوفا بجمع الكتب، مغرما بتملكها، فكون مكتبة عظيمة، جمعت من الأعلاق النفيسة وأمهات الدواوين شيئا عظيما، ولقد نافس فيها وغالى في أثمانها، وربما رحل في ذلك حتى حصل منها ما لم يكن عند أحد من أبناء عصره، ولا تحصل عند كثير ممن تقدمه. ودفع أبا الحسن الشاري شغفه بالعلم وحبه لأهله أن أوقف خزانته هذه على أهل العلم بالمغرب، وجعل مقرها بالمدرسة المنسوبة إليه والتي ابتناها من ماله بسبتة[3]". وتوالى الوقف في الدول الموالية، فالتاريخ يحدثنا بغزارة عن توقيفات أبي عنان على مكاتب القرويين على عهد دولة بني مرين. واتصل الوقف على عهد الوطاسيين، ومازالت الخزائن المغربية تحتفظ بتحبيسات كثيرة لسلاطين الوطاسيين، من مثل تحبيس أبي الحسن علي بن أبي الحجاج يوسف بن زيان الوطاسي لنسخة من كتاب السماء والعالم في اللغة على مكتبة القرويين[4]، وتحبيس أبي عبد الله محمد بن عمر بن زيان بن عمر بن علي

(1) دراسات في علم المخطوطات والبحث الببليوغرافي، أحمد شوقي بنبين، منشورات كلية الآداب. الرباط 1993، ص: 39.

(2) اختصار الأخبار للأنصاري ص: 132.

(3) العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين محمد المنوني مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر ط: 2، الرباط 1397هـ1977 م ص: 281.

(4) الخزانة العلمية بالمغرب محمد العابد الفاسي ص: 36.

الوطاسي لنسخة من أربعين جزءا من صحيح البخاري على المكتبة الآنفة الذكر[1]. وجاء السعديون إلى المغرب ولم يتوانوا في حمل المشعل وذادوا عن العلم، وطما بحر التأليف عندهم. واشتهر منهم أحمد المنصور بموسوعية منقطعة النظير. وقصده العلماء من كل حدب وصوب[2]. وسعى في جمع مكتبة منقطعة النظير. وحبس منها جزءا وفيرا على مكتبة القرويين[3]. قال محمد عابد الفاسي عن هذا الأمر: "وبخزانة القرويين مجموعة مهمة من وقفه وعليها خط يده". [4] ومن ضمن الخواص الذين حبسوا كتبهم على هذا العهد أذكر الشيخ عبد الجبار البرزوزي الفجيجي الذي أوقف جملة من كتبه على مكتبة دار العدة بفجيج[5]، وأحمد الزقاق الذي أوقف كتاب: "أحكام الفصول في إحكام الأصول" على خزانة جامع الأندلس[6]. أما بخصوص الوقف على عهد الدولة العلوية، فالتاريخ لم يبخل علينا بغيض من فيض من التحبيسات الكثيرة المرشومة في ظهور الأسفار، والتي تشهد على تنامي هذه

(1) المرجع نفسه ص: 37.

(2) أذكر بوجه خاص ما لاحظه أحمد المقري، وكان مقربا من المنصور من شموخ في العلم، وتسابق في تخليد الأسفار على عهده، وجمع ذلك في أثره الرائق: زهرة الآس العطرة الأنفاس في ذكر من لقيته في الحضرتين مراكش وفاس. استنتاجات من مشاركتي: مخطوطات المقري بالخزانة الحسنية؛ دراسة في بدايات النصوص. ضمن الملتقى الدولي: تراث المقري مشروع إعادة قراءة الذي نظمته جامعة المسيلة بالجزائر أيام 03- 04-05 مارس 2008م.

(3) الخزانة العلمية. ص: 44.

(4) الخزانة العلمية ص: 45.

(5) تاريخ الأوقاف الإسلامية على عهد السعديين. ج 1 ص: 262.

(6) الكتاب نفسه، ج1 ص: 262.

الظاهرة على هذا العهد. وقد دون محمد العابد الفاسي مجموعة من الوثائق الحبسية لسلاطين هذا العهد بدءا بالمولى رشيد، فالمولى إسماعيل إلخ، ومن ضمن هذه الوثائق التي دونها حرفيا في كتابه: "الخزانة العلمية" أذكر وثيقة وقف للسلطان مولاي رشيد مرسومة بأول ورقة من الجزء الثاني من كتاب المفردات لابن البيطار[1]، ووثيقة وقف للسلطان المولى عبد الله بن إسماعيل لكتاب "عمل من طب لمن حب على خزانة القرويين"[2]، ووثيقة وقف للسلطان أبي الربيع المولى سليمان لنسخة من كتاب: "نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض" على خزانة مسجد الرصيف بفاس[3]، ووثيقة وقف السلطان المولى عبد الحفيظ لكتاب: "نشر البنود". في عشر نسخ على خزانة جامع القرويين بفاس[4]، ووثيقة وقف السلطان محمد الخامس لكتاب: "مواهب الجليل على مختصر خليل" المشتمل على خمسة أجزاء على خزانة كلية القرويين[5] إلخ وإنما هذه نماذج تظهر ثراء هذه الممارسة الخيرية في المكتبة المغربية، وكيف كانت عملة رائجة في نشر الكتاب، وجعله ميسورا في القراءة، ولو أننا التمسنا من الشواهد أكثر من هذا القدر لضاق المجال عن كثرتها، ولطفقنا نعد منها ولا نعددها.

---

(1) الخزانة العلمية. ص: 63.

(2) الكتاب نفسه ص: 64.

(3) الكتاب نفسه ص: 65.

(4) الكتاب نفسه ص: 66.

(5) الكتاب نفسه ص: 66.

3- صنوف الواقفين للكتب والمكتبات في الخزائن المغربية:

إن الواقف في الخزائن المغربية يأتي على كل الفئات الاجتماعية، تتصدرها فئة السلاطين والأمراء" ومن الطبيعي أن يكون أوائل المسهمين في هذا النوع من الوقف هم الخلفاء، والحكام، والوزراء، والأثرياء، نظرا لتوفر المال لديهم ووجود الحافز نحو المشاركة في عمل خيري عن طريق استغلال جزء من ثرواتهم للصالح العام"[1]، ثم تأتي بعدهم فئة الأعيان ومشاهير الناس ثم فئة العلماء والنساخ، وإذا أردنا أن نحدد هذه الفئات نذكر منها الآتي:

3-1 تحبيس السلاطين:

ويتعلق الأمر بالتحبيسات التي أنجزها السلاطين أنفسهم، ومثاله تحبيس السلطان المريني أبي عنان للنواة الأولى لمكتبة القرويين على طلبة العلم، وتحبيسه جملة من المصاحف على الجناح الخاص بالمصاحف في المكتبة المذكورة[2]، بل إن أغلب المخطوطات القديمة المحبسة على المكتبة هي، حسب ما ذهبت إليه لطيفة بنجلون العروي، من تحبيس السلطان أبي عنان، وأخيه أبي سليم بن أبي الحسن المستعين بالله، وأبنه موسى بن أبي عنان[3]، وتحبيس السلطان سيدي محمد بن عبد الله كتاب: " إكمال المعلم في شرح فوائد مسلم "[4] للقاضي عياض على خزانة المسجد الأعظم بتازة، وتحبيسه لإرشاد الساري للقسطلاني على الخزانة نفسها[5]، وتحبيسه للجامع الصحيح

(1) الوقف وبنية المكتبة العربية، يحيى محمود ساعاتي، ص: 34.

(2) زهرة الآس في بناء مدينة فاس، ، الجزنائي ص68-69.

(3) Les bibliothèques. p: 138.

(4) المخطوط رقم: م، أ، ت؛ 180 بخزانة المسجد الأعظم بتازة.

(5) رقم: م، أ، ت؛ 168.

للبخاري[1]، و"التهذيب لمسائل المدونة" للبراذعي[2] على المكتبة المذكورة، ، ومثال ذلك أيضا وقف السلطان المذكور لنسخة من: "وضة الناظر وجنة المناظر"[3] لأبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي المتوفى سنة 620 هـ على خزانة الجامع الكبير بمكناس، ووقفه لنسخة من: "شرح تنقيح الفصول في الأصول"[4] لأبي العباس أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن الصنهاجي البهنسي القرافي المتوفى سنة 684 على الخزانة نفسها، ووقفه لنسخة من "الوعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار"[5] لتقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي المتوفى عام 845 هـ على الخزانة المذكورة، وتحبيسه لنسخة من: "اللباب في مشكلات الكتاب"[6] للإمام الشطيبي على المسجد الأعظم بتاريخ 20 جمادى الثانية 1185 هـ، وتحبيس السلطان المولى المستضيء بن المولى إسماعيل العلوي لنسخة من: "الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل"[7] لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي المتوفى عام 538 هـ، وتحبيس المولى اليزيد بن السلطان سيدي محمد بن عبد الله لنسخة من: " تفسير الجلالين"[8] بتاريخ 27 ربيع الأول 1201 هـ على المسجد الأعظم بتازة، وتحبيس السلطان المولى سليمان لنسخة من الكتاب

(1) رقم: 99 م، أ، ت .
(2) رقم م، أ، ت؛ 220.
(3) مخطوط ج، ك، م؛ 518.
(4) مخطوط ج، ك، م؛ 100.
(5) مخطوط ج، ك، م؛ 79.
(6) النسخة رقم: 336/1.
(7) مخطوط ج، ك، م؛ 182.
(8) النسخة رقم: 75.

نفسه[1] على المسجد الأعظم بتازة بتاريخ 28 رمضان 1218 هـ.

2-3 تحبيس القواد:

ويتعلق الأمر بالتحبيسات التي أنجزتها طبقة القواد باعتبار مكانتهم الاجتماعية في الماضي، ومن ذلك تحبيس القائد مزيان بن عمر الجمايعي لنسخة من: "إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري"[2] لمحمد بن أحمد بن الخطيب القسطلاني على خزانة المسجد الأعظم بتازة بتاريخ 29 شعبان 1146 هـ وتحبيس القائد عزوز بن أحمد الهزاط لنسخة أخرى من المصحف الشريف[3] في أحد عشر مجلدا حبسها في 15 رمضان 1348 هـ على المسجد المذكور. وهناك نماذج أخرى يضيق المجال عن حصرها.

3-3 تحبيس النساء:

ويتعلق الأمر بالتحبيسات التي أنجزتها النساء طوال التاريخ الأمر الذي يظهر مشاركة المرأة في الحياة الثقافية والعلمية ومسارعتها إلى أعمال الخير على نحو ما عرف عن الرجل، ومثاله ما صنعته أم أحمد المنصور مسعودة بنت الشيخ أبي العباس أحمد بن عبد الله الوزكيتي من تأسيس مسجد باب دكالة، وحبست على خزانته نفائس من المخطوطات[4]، وتحبيس السيدة فاطمة بنت الحاج عبد القادر الجزنائي لنسخة من صحيح البخاري[5] على خزانة المسجد الأعظم بتازة، بتاريخ 4 ربيع الأول 1200هـ، وتحبيس إحدى عمات السلطان العلوي

---

(1) النسخة رقم: 81.

(2) م، أ، ت؛ 151.

(3) النسخ رقم: 37 و38 و39 و40 و41و42 و43 و44 و45 و46 و47 و48 .

(4) الخزانة العلمية. ص: 45.

(5) م، أ، ت؛ 97.

محمد الخامس كمية وافرة من الكتب النادرة على خزانة القرويين[1].

4-3 تحبيس العلماء:

ويتعلق الأمر بتحبيس العلماء أنفسهم للكتب. وطبقة العلماء والكتاب هي الطبقة الأكثر أهلية لممارسة هذا النوع من الخير، خاصة وأن الكثيرين منهم كانوا يبادرون إلى تحبيس تواليفهم الخاصة على طلبة العلم التماسا للأجر والثواب، ومن ذلك تحبيس العلامة ابن غازي لجزء من كتابه" تكميل التقييد "على مكتبة القرويين بفاس[2]، وتحبيسه كتاب" إتحاف ذوي الذكاء والمعرفة"على ولديه وأعقابهم على خزانة القرويين بعدهم[3]، وتحبيس العلامة ابن خلدون لنسخة من كتاب: "العبر وديوان المبتدأ والخبر. "على خزانة القرويين. ويعد الآن من نفائس المكتبة، وهو مكتوب على رق الغزال، وتحبيس العلامة سيدي محمد بن عبد الهادي المنوني المكناسي لنسخة من "جمهرة أنساب العرب"[4] لابن حزم الظاهري على خزانة الجامع الكبير بمكناس، وهو مخطوط نادر سبق أن وقفت عليه من خلال تناولي لثمان نسخ لم يتعرض لها عبد السلام محمد هارون في تحقيقه للكتاب[5].

---

(1) دور الكتب في ماضي المغرب، محمد المنوني، ص: 58.

(2) الكتاب نفسه ص: 58.

(3) انظر م، ق، ف: 219.

(4) مخطوط ج، ك، م؛ 443.

(5) مشاركة بعنوان: بغض الإواليات في التحقيق العلمي من خلال ثمان نسخ من جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسي، مصطفى طوبي ندوة ابن حزم الدراسة والتوثيق، مركز الدراسات المغربية الأندلسية، كلية الآداب، ظهر المهراز فاس 20-23 دجنبر 2006 م.

5-3 تحبيس المحسنين:

ويتعلق الأمر بالتحبيس الذي كان ينجزه المحسنون الذي كانوا في يسرة من أمرهم، وأرادوا أن يخلدوا أعمالهم التماسا لمرضاة الله، ومن ذلك تحبيس المحسن عبد الكريم بناني لنسخة من شرح على مقدمة القرطوبي لأحمد بن أحمد ابن عيسى البرنيسي المعروف بزروق المتوفى عام 899 هـ على خزانة الجامع الكبير بمكناس عام 1401 هـ، وتحبيس المولى الطاهر بن محمد التازي وأخيه المولى أحمد بن محمد التازي لنسخة من المصحف الشريف[1] على خزانة المسجد الأعظم بتازة بتاريخ 9 صفر 1277 هـ.

6-3 تحبيس النساخ:

وهو التحبيس الذي كانت تنجزه طبقة النساخ أو الوراقين الذين كانوا يحترفون هذه المهنة وأرادوا أن يتصدقوا بشيء مما كسبت أيديهم فاختاروا تأبيد خطوطهم، رغم ظروفهم التي ربما لم تكن تسمح لهم بذلك، ومن ذلك تحبيس عمر بن ناصر المعين التسولي لسفر نسخه بنفسه من تعليق على لامية الزقاق[2] للتاودي بنسودة على خزانة المسجد الأعظم بتازة، وتحبيس أبي الحسن علي بن أبي سعيد عثمان بن يعقوب المريني لخمس ربعات قرآنية انتسخها بخط يده، منها واحدة على خزانة شالة بالرباط[3].

---

(1) مخطوط رقم 11.

(2) م، أ، ت؛ 370/ 2.

(3) تاريخ الوراقة المغربية، صناعة المخطوط المغربي من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة، محمد المنوني منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط 1991 م.

7-3 تحبيس النواب:

ومن ذلك أن يحبس شخص كتابا بالنيابة عن المحبس الحقيقي أي تحبيس أشخاص ينوبون عن المحبسين الأصليين، ومثال ذلك ما كان يفعله الخليفة مولاي علي بن السلطان العلوي محمد بن عبد الله نيابة عن والده السلطان المذكور، وقد ناب عنه في تحبيس نسخة من ألفية العراقي[1]، ونسخة من المرائي لابن أبي جمرة[2] على خزانة المسجد الأعظم بتازة، ونسخة من كتاب التمييز لما أودعه الزمخشري من الاعتزال في تفسيره للكتاب العزيز[3]، على خزانة المسجد المذكور.

وعموما فقد شكلت هذه العناصر التي تأتي على كل طبقات المجتمع، وعناصر أخرى ربما فاتنا ذكرها، حركة المجتمع الإيجابية في صناعة الوقف وتدوينه في سجل الممارسات الخيرية الناجعة والمفيدة. وقد لا نستغرب إذا عثرنا على فئات أخرى كانت تتحرك بمسؤولية عديمة النظير في ترسيخ هذا الفعل من منطلق أهميته وقيمته العلمية والحضارية.

4-نماذج من الوقف المكتبي:

أقصد بالوقف المكتبي، الوقف بمفهومه الواسع سواء تعلق الأمر بالوقف في المخطوطات أو الوقف في المكتبات، فالأمران يلتقيان إذ إن التراث المحبس يتكون إما من حالات خاصة أو من مجاميع عامة، وكثيرة هي المكتبات التي تم توقيفها كلها كما هو الأمر بالنسبة لمكتبة أبي عنان التي سنجد آثارها ظاهرة في

---

(1) م، أ، ت؛ 1/424

(2) م، أ، ت؛ 175

(3) النسخة رقم: 406/ 2.

مكتبة القرويين بفاس بشكل واضح، واعتبارا لهذا الأمر فإننا متحدثون على كل عنصر على حدة؛ بدءا بوقف المكتبة، وانتهاء بوقف الكتاب المخطوط الذي يشكل النواة الأساسية لوقف المكتبات.

1-4 نصوص من وقف المكتبات:

لم يتوقف أمر الوقف في المغرب على الكتب والدفاتر المستقلة، وإنما تعدى ذلك إلى المكتبات، إذ كان المحسنون في كثير من الأحيان يتداركون خطورة الإرث في المكتبة فيوقفونها على طلبة العلم أو يوصون بها لهذا الغرض النبيل. وإذا عدنا إلى مكتباتنا التي يضيق المجال عن حصرها ألفينا أنها كانت مكونة أصلا من الوقف. وصنعت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية دليلا يجرد أهم الخزائن الحبسية في القديم، ومما ذكرته في هذا الباب خزانة جامع المولى عبد الله الشريف بوزان، وخزانة نظارة الأوقاف بمدينة آسفي، وخزانة المعهد الإسلامي الحبسية بنظارة تطوان، وخزانة المخطوطات الحبسية بنظارة زرهون، وخزانة المعهد الإسلامي الحبسية بنظارة سلا، والخزانة الحبسية بالزاوية الحمزاوية بإقليم الراشيدية، وخزانة المسجد العتيق الحبسية بقصبة الصويرة، والخزانة الحبسية بالمسجد الأعظم بمدينة طنجة، والخزانة الحبسية بالمدرسة العتيقة التابعة لنظارة قلعة السراغنة، والخزانة الحبسية بنظارة القصر الكبير، والخزانة الحبسية بمدينة تارودانت، والخزانة الحبسية التابعة للمجلس العلمي الإقليمي لولاية البيضاء، وخزانة جامع المولى سليمان بمدينة أبي الجعد. [1] إلا أن هذا الدليل ليس مفصلا في الواقفين ونوعية التحبيس، وإنما هو ذكر لأسامي المكتبات والمخطوطات كما أسلفنا القول. ونحن قد ذكرنا

(1) دليل مخطوطات الخزانات الحبسية، إعداد وزارة الوقاف والشؤون الإسلامية، 1422.

سابقا أن أبا الحسن الشاري (تـ 649 هـ) كان قد وقف مكتبة مدرسته بسبتة على أهل العلم[1].

وذكر ابن ميمون الغماري (ت 917هـ) أنه كان يرتاد خزانتين بفاس على عهده كانتا موقوفتين على طلبة العلم[2]. ومن المكتبات التي ذكرها المنوني رحمه الله في إطار الوقف في كتابه عن الخزائن المغربية مكتبة الصفارين بفاس في نهاية القرن السابع الهجري. قال إنه طلب من طاغية الإسبان "سانجة" أن يبعث إليه بما يجده في بلاده من كتب المسلمين. فبعث إليه سانجة ثلاثة عشر حملا. فأمر رحمه الله بها فحملت إلى مدينة فاس فحبسها على طلبة العلم بالمدرسة التي بناها -مدرسة الصفارين-"[3] وقال رحمه الله عن توقيف خزانة القرويين بفاس: "ومن حسنات السلطان أبي عنان المريني، أنه في جمادى الأولى سنة 750 هـ أسس خزانة القرويين بأعلى المستودع -حيث اليوم خزانة الطالب وأوقفها على العموم"[4].

وتزايد عدد الكتب في هذه الخزانة بفعل كثرة التحبيسات عليها. قال المنوني في هذا الباب: "ثم لم يزل الملوك والأمراء يحبسون عليها نفيس الدفاتر، وجليل الذخائر، في مختلف العصور، ومتنوع الفنون. فقد أوقف عليها ملوك

---

(1) اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سنا الآثار لمحمد بن القاسم الأنصاري، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، ط. 2 الرباط، 1403 هـ1983 م.

(2) الرسالة المجازة في معرفة الإجازة، نسخة مصورة في الخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم: 14442، ص279.

(3) دور الكتب في ماضي المغرب، محمد بن عبد الهادي المنوني، منشورات الخزانة الحسنية 2005 م ص: 56 -57.

(4) المرجع المذكور ص: 57.

المرينيين الآخرين وملوك الوطاسيين الشيء الكثير، ثم أوقف عليها المنصور السعدي وأولاده كثيرا من مخطوطاته. وفي الدولة العلوية كثر تحبيسهم عليها، سيما السلطان الجليل سيدي محمد بن عبد الله، الذي أوقف عليها قسطا كبيرا من خزانة جده المولى إسماعيل. بل إن روح الاهتمام بالتحبيس على هذه الخزانة من لدن الدولة العلوية كان حتى من أميراتها، فقد حبست؛ وما بالعهد من قدم؛ إحدى عمات مولانا الإمام المؤيد بالله على مكتبة القرويين كمية وافرة من الكتب القيمة النادرة"[1].

وكانت تجاور مكتبة القرويين المعهودة مكتبة أخرى متخصصة في المصاحف ذكر الجزنائي أن السلطان أبا عنان أوقف عليها جملة من المصاحف، ودون قيد الوقف على كل سفر منها[2]. ووقف السلطان العلوي المولى محمد ابن عبد الله خزانة جده المولى إسماعيل، وكانت تزيد على الاثني عشر ألف مجلد على جميع مساجد المغرب[3]، ووقف العلامة عبد الله كنون مكتبته على طلبة العلم بطنجة (شمال المغرب)، وهي تحتوي من نوادر الأسفار والمخطوطات الشيء الكثير، الأمر الذي يجعلها من المعالم الثقافية القيمة في المغرب، تنيف مخطوطاتها عن الستة آلاف مخطوط دون عد المطبوعات الحجرية والمطبوعات. يقول عن تحبيسها عبد الكبير العلوي المدغري في

---

(1) المرجع نفسه، ص: 58.

(2) زهرة الآس في بناء مدينة فاس لعلي الجزنائي، تحقيق ألفرد بل، الجزائر 1340 هـ1922 م، ص: 69.

(3) ينظر: دور الوقف في الحياة الثقافية في المغرب في عهد الدولة العلوية الدكتور السعيد بوربكة منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية 1417هـ، ص: 334.

صدارة الفهرسة التي صنعها لها عبد الصمد العشاب: "وغني عن البيان أن الأستاذ العلامة سيدي عبد الله كنون كان منذ 1985 م قد تطوع بتحبيس هذه المكتبة العلمية على الطلبة والباحثين والدارسين للنهل من مشاربها المعرفية المتنوعة"[1]. ووقف باشا سلا السابق الحاج محمد بن الحاج الطيب الصبيحي خزانته العلمية في ربيع الأول عام 1378 هـ "لتكون وقفا على العلماء وطلبة العلم وعامة القراء، وكانت تشتمل على أربعة آلاف كتاب مخطوط ومطبوع"[2].

ويجب أيضا أن نذكر، في هذا الصدد، توقيف السلطان المولى محمد بن عبد الله العلوي مجموعة من خزائنه على الجوامع المغربية التي ما تزال شاهدة عليه إلى الآن. ومن ذلك توقيفه كتبه على خزانة مدرسة القصبة بالصويرة التي من كتبها المخطوطة "الاستيعاب" لابن عبد البر، و"البيان والتحصيل" لابن رشد الجد، و"تبصرة الحكام" لابن فرحون، و"الإعلان بأحكام البنيان" لابن الرامي التونسي، و"اختصار ابن هارون الكناني لـ"النهاية والتمام "للمتيطي، و"الدر النثير على أجوبة أبي الحسن الصغير"، و"معيار" الونشريسي، وغيرها من أمهات الكتب القيمة في جميع الفنون المعرفية. يقول عن هذه الخزانة الأستاذ محمد طيب الصويري ما يلي: " ومعظم كتب هذه الخزانة هي من تحبيس السلطان المولى محمد بن عبد الله العلوي ويوجد مكتوبا على أول كل مجلد منها نص عقد الإشهاد بالتحبيس مختوما غالبا بتوقيع عدلين بشكلهما،

---

(1) فهرس مخطوطات مكتبة عبد الله كنون، إعداد عبد الصمد العشاب مدير المكتبة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية: 1417 هـ 1996 م، ص: 5.

(2) الوقف وبنية المكتبة العربية، يحيى محمود ساعاتي. ص: 55.

ومؤرخا بتاريخ الإشهاد بالتحبيس، وهو تاريخ غير موحد في سائر الإشهادات التي تنص على ما حبسه السلطان المذكور، فهي تواريخ موزعة على سنوات ولايته فمنها ما يحمل تاريخ 1179 هـ، وهو تاريخ السنة التي تلي سنة التأسيس، ومعظمها يحمل تاريخ 1199 هـ"[1].

ووقف الفقيه عبد السلام بن القائد الحنفي التيدسي السندالي مكتبته على الأحفاد التيدسيين دون غيرهم، وهو نموذج من الوقف المحصور، والمكتبة الذكورة هي بقية إيجابية لمهد الدولة السعدية في المغرب وكانت دفاترها تعد بالآلاف، إلا أن طبيعة هذا الوقف يجعلها حكرا على التيدسيين، ، جاء في نص الوقفية ما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم:

أشهدنا بحول الله وقوته الفقيه العلامة السيد عبد السلام بن القائد الحنفي التيدسي السندالي أنه حبس خزانته للكتب المشتملة على أنواع الفنون العلمية على العلماء والطلبة من أبنائه وأبناء أبنائه ما تناسلوا وامتدت فروعهم دون غيرهم من الأبناء فإن قضى الباري جل علاه بانقضاء العلماء منهم، فليتولى حفظها وصيانتها من أظهر الله فيه الصلاح لحفظها وصيانتها إلى أن يظهر الله فيهم من فيه الأهلية بفضله، وأنه يوصي ويؤكد جميع من صار من الأولاد آمنا عليها ألا يعير لأي أحد كيفما كان نوعه وكيفما كانت مرتبته كتابا ولو ورقة واحدة منه، فمن رغب من علماء المسلمين المطالعة والاستفادة فلا يرى بأسا

---

(1) المسجد العتيق بالصويرة، للأستاذ محمد طيب صويري، ضمن منجزات علماء سوس الجزء الخامس، منشورات جمعية علماء سوس 2004 م. ص: 147.

أن يساعدوه ويقفوا معه إلى أن يشفي غليله، ويوصيهم كذلك أن يتقوا الوعيد الشديد الوارد في كتمان العلم، وقد جعل هذا الحبس حبسا تاما مؤبدا سرمدا إلى يوم الدين فمن سعى في تغييره أو تبديله أو تحريفه فالله حسيبه وسائله وولي الانتقام منه ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [سورة الشعراء آية: 227] شهدا على إشهاده في تاريخ 16 جمادى الأولى 1332 هـ عبد الله بن عبد الرحمن التملي رعاه الله في الدارين وعبد ربه الحسن بن محمد وفقه الله ولطف به آمين"[1].

وللمحبس هذا الدعاء على من بدل أو غير في محبسه:

من قام بالتغيير في محبسي وكلته إلى العزيز الأقدس

أسأله أن يتولى الانتقام منه بجاه الحق سيد الأنام

محمد أفضل رسل الله عليه والآل صلاة الله[2]

ونشير إلى أن المكتبة التيدسية ترتبط بالزاوية التيدسية وهي عاصمة الدولة السعدية بالمغرب الأقصى كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، وقد مر بها مجد وأدب عظيم، وتولى أمرها زمرة من العلماء الكبار الذين كانت تشد إليهم الزيارة لطلب العلم، وبقي من أسفار المكتبة ودفاترها الشيء العجيب، وهي تعد الآن بالمئات (تصل مخطوطاتها إلى حوالي ثمانمائة مخطوط)ونستخرج من هذا الوقف العناصر الآتية:

اسم الواقف: عبد السلام بن القائد الحنفي التيدسي.

---

(1) وثيقة توصلت بها من المكتبة نفسها بتيدسي عبر طلبة السلك الثالث، ماستر الفقه المالكي، 2007م

(2) مصور عن الوثيقة.

صيغة الوقف: أشهدنا. أنه حبس خزانته.

الموقوف عليه: العلماء والطلبة من أبنائه وأبناء أبنائه، وأهل الصلاح في حالة انقطاع ذريته.

شروط الوقف: رفض الإعارة كيفما كان نوعها ولو تعلق الأمر بورقة. والمطالعة في عين المكان.

الشاهدان: عبد الله بن عبد الرحمن التملي، والحسن بن محمد

تاريخ الوقف: 16 جمادى الأولى 1332 هـ.

وأعتقد أن هذه هي العناصر الأساسية التي تنسج بنية الوقف المكتبي، وخاصة في المكتبات، وقد تختلف طريقة صياغتها ولكن تظل مكوناتها الجوهرية حاضرة في كل الصيغ.

. ومن نماذج وقف المكتبات أيضا وقف المولى عبد الله بن عبد الملك الحاحي مكتبته على المسجد الأعظم بتارودانت أو ما كان يسمى بردانة، جاء في نص الوقفية ما يلي:

"الحمد لله أشهد الخليفة الأرضى الأمجد المرتضى خليفة سيدنا نصره الله وهو الفقيه البركة سيدي عبد الله بن سيدي عبد المالك الحاحي أعزه الله أنه حبس ووقف جميع الكتب المذكورة في الزمام حوله المتخلفة عن الطالب السيد محمد بن سالم الرداني على منافع المسجد الأعظم بردانة عمره الله بدوام ذكره وجعلها حبسا من جملة أحباسه ينتفع بها من ينتفع وأراده حبسا مؤبدا ووقفا مخلدا فمن سعى في تبديله أو تغييره فالله حسيبه وولي الانتقام منه ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [سورة الشعراء آية: 227] تقبل الله سعيه، وأصلح عمله، وأخذ بيده. شهد به عليه وعرفه فأكمله وفي ربيع الثاني عام

ستة وستين ومائتين وألف عبد ربه فلان بن فلان وعبد ربه محمد بن سعيد الهلالي انتهى من أصله قوبل به حمائله شهد به ناسخه في تاسع وعشرين قعدة الحرام عام أربعة وثلاثين وثلاثمائة وألف عبيده تعالى المختار بن عبد الله وعبده تعالى علي بن محمد بن عرفة "[1].

4 -2 نصوص من وقف الكتب المخطوطة:

وليست الكتب المحبسة بأقل حظا من الخزائن برمتها، بل إن وقف الأسفار المفردة هو الأصل في الوقف، لأن المحبس كان في غالب الأحيان يسجل الوقفية على ظهر كل سفر على حدة حتى وإن تعلق الأمر بمجموع المكتبة، وخير متحدث عن هذه الظاهرة الخصبة هو الأسفار نفسها. فكثيرة هي المخطوطات التي مازالت تحمل قيود الوقف بشكل واضح أو مندرس من مثل الوقف الخلدوني المشهور الذي مازال موجودا إلى الآن في الجزء الخامس من كتاب العبر في خزانة القرويين بفاس، وقد درس الأستاذ أحمد شوقي بنبين هذا الوقف بشكل دقيق ولافت للنظر[2]، ووقف على عناصر الوقف من مثل اسم الواقف، وصيغة الوقف في الوقفية، إضافة إلى عناصر أخرى من مثل الكتاب الموقوف، والجهة الموقوف عليها، وشروط الوقف، والإشهاد. ونجد الوقفيات في المخطوطات المغربية تحترم إلى حد بعيد هذه المعطيات، وقد تضيف إليها أشياء أخرى. ففي نسخة شرح للمفضليات الموجودة بالخزانة الحسنية بالرباط لأبي بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار الأنباري

(1) مصور عن الوثيقة ناولني إياها الطالبان أحمد فاضل وإبراهيم أيت بولكسوت.

(2) أحمد شوقي بنبين دراسات في علم المخطوطات والبحث البيليوغرافي، ط 2، 2004م ص 118 وما بعدها.

(ت328هـ)[1]، ذكر الواقف أحمد طوسون باشا بحضور الناظر السيد حسن أوليا بن مصطفى أوليا. والوقف يعطينا معلومات قيمة عن قيمة المخطوط، وعن مكانه، وزمانه، ومعطيات حضارية أخرى جديرة بأن ننتبه عليها.

وقد ذكرنا سابقا ما فعله ابن خلدون رحمه الله في كتابه: "العبر" من تحبيس لنسخة منه على مكتبة القرويين بفاس، ومن هذه النصوص أيضا وقفية الخليفة الموحدي عمر المرتضى التي بمقتضاها وقف مصحفا مكونا من عشرة أسفار على خزانة المسجد الكبير لابن يوسف بمراكش. وكان أفرد كل سفر بتحبيس خاص به، ورد في السفر الرابع ما يلي: "حبس رضي الله عنه هذا المصحف الموجود في عشرة أسفار، وهذا السفر الرابع وهو محفوظ في صندوق من خشب الأبنوس مزين بزخارف من النحاس المذهب. تحبيس الذي رسمه بيده عبد الله عمر المرتضى تقبله الله العلي منه وجزاه الله به خير جزاء على المسجد الكبير العتيد والجليل المسجد التليد للسقاية الذي رسمه، وقد وضع هذا المصحف في متناول القراء أبد الدهر، دون حظر في المساجد أو إعارة. وهذا التحبيس دائم ويستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين"[2]. ومن هذه النصوص نصان أوردهما العابد الفاسي ضمن نماذج تحبيس السلطان أبي عنان لعيون الدفاتر على القرويين؛ يقول في الأول منهما:

"الحمد لله حبس مولانا السلطان المؤيد المظفر المعان أمير المومنين المتوكل على رب العالمين محيي العدل والدين أبو عنان بن الخلفاء الراشدين تقبل الله أعماله وبلغه من صالح الدين والدنيا آماله هذا الكتاب المرسوم بغاية الوصول،

---

(1) مخطوط خ، ح، ر؛ 5394.

(2) خ، ي، م: 432

المشتمل على سفرين المكتوب هذا على ظهر الأول منها بالخزانة السعيدة التي ابتدع أيده الله إنشاءها، ورفع الطالبين لواءها، وهي التي بالجانب الشرقي من صحن جامع القرويين الذي بفاس المحروسة عمره الله تعالى بذكره على طالب العلم ومبتغيه وسالك نهجه الواضح ومقتفيه وعلى أن لا يخرج به من الجامع المذكور تحبيسا دائم الأمد متصلا إلى الأبد ابتغاء وجه الله العظيم، ورجاء ثوابه الجسيم، وكتب خط يده الكريمة بصحة ذلك في أواخر ذي القعدة من عام 750هـ عبد الله ووليه أبو عنان أمير المومنين ابن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق خار الله سبحانه له"[1].

ويقول في النص الثاني: "الحمد لله حبس مولانا السلطان المؤيد المنصور المظفر المعان أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين محيي العدل والدين أبو عنان بن الخلفاء الراشدين تقبل الله ﷻ أعماله، وبلغه من صالح الدين والدنيا آماله، هذا الديوان في شرح ابن الجلاب المشتمل على أربعة أسفار المكتوب هذا على الرابع منها بالخزانة السعيدة التي أبدع أيده الله إنشاءها ورفع للطالبين لواءها بالجانب الشرقي من صحن القرويين بفاس المحروسة عمره الله تعالى بذكره على طالبي العلم ومبتغيه وسالكي نهجه الواضح ومقتفيه، وعلى أن لا يخرج به من الجامع المذكور تحبيسا دائم الأمد متصلا على الأبد ابتغاء وجه الله العظيم ورجاء ثوابه الجسيم وكتب خط يده الكريمة بصحة ذلك في أواخر شهر ربيع الأول المبارك عام احد وخمسين وسبعمائة".

ومن هذه النصوص وقفية توجد على ظهر المخطوطة رقم 13 (تعليق من

(1) الخزانة العلمية بالمغرب، محمد العابد الفاسي، 1380 هـ 1960 م ص: 29

شرح الوسيط والصغير على رسالة أبي زيد القيرواني)[1] لأبي الحسن المالكي بخزانة أحمد نايت ناصر بتنغير وهي منطقة توجد شرق المغرب، وأعتقد أن مجموعها انحدر من الخزانة الناصرية بتمكروت، جاء فيها: "الحمد لله، وصلى الله وسلم على سيدي ومولاي محمد وآله وصحبه وسلم تسليما: حبس المكرم الحاج محمد بن عبد الله بن أحمد بن أبي زيد البلبالي، هذا الكتاب المبارك حبسا قويا على الدوام، وقاصدا بذلك وجه الله العظيم، ونبيه الكريم، فمن بدل فيه أو غير، أو سعى في بيعه فالله حسبه وولي الانتقام منه، وعليه ألف نبي وأربعة وعشرون ألفا أولهم آدم وآخرهم محمد ﷺ، ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [سورة الشعراء آية: 227]، وكتب بذلك رب الحبس المذكور، وهو مجال يتم فيه الاستماع، أواسط ذي القعدة عام تسعة وثمانين وألف، عبد الله تعالى: منصور بن علي بن عثمان البلبالي".

ومن هذه النصوص وقفية توجد على ظهرية نسخة من كتاب مطالع المسرات بجلاء دلائل الخيرات وقد كتب نص الوقفية بجانب سرلوحة الكتاب المكتوبة بماء الذهب على أرضية زرقاء وفيها ما يلي: "الحمد لله وحده حبس أمير المؤمنين سيدنا ومولانا عبد العزيز أعزه الله وتقبل عمله هذا المجلد المشتمل على مطالع المسرات على مسجد المواسين وتقبل عمله وحازه قيم خزانته معاينة وقيده في سابع سفر عام 1321 هـ".

---

(1) مخطوطات خزانة أحمد نايت ناصر قليلة وغير مرقمة، خزانة نايت ناصر تنغير (الوسط الشرقي للمغرب).

5- الصورة الحفرية للوقف:

5- 1 بناء الوقفية:

تستجيب الوقفية لبناء خاص تحضر فيه عناصرها، وشروطها بشكل دقيق ولافت للنظر[1]، حيث يذكر اسم الواقف، وصيغة الوقف في الوقفية، إضافة إلى عناصر أخرى من مثل الكتاب الموقوف، والجهة الموقوف عليها، وشروط الوقف، والإشهاد. ونجد الوقفيات في المخطوطات المغربية تحترم إلى حد بعيد هذه المعطيات وقد تضيف إليها أشياء أخرى. ففي نسخة شرح المفضليات لأبي بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار الأنباري[2] (ت 328هـ)، ذكر الواقف أحمد طوسون باشا بحضور الناظر السيد حسن أوليا بن مصطفى أوليا. وفي وقفية ابن خلدون تحضر كل عناصر الوقف. فهناك الصيغة، والتي تتمثل في الأفعال الآتية: وقف، وحبس، وسبل، وأبد، وحرم، وتصدق. وهو إنما يتغيى من هذه المترادفات تأكيد الوقف من جهة، والمراهنة على إرضاء جميع التوجهات الفقهية من جهة أخرى، وهناك الواقف الذي هو ابن خلدون ثم هناك الشيء الموقوف وهو كتاب العبر، وهناك الجهة الموقوف عليها وهي خزانة جامع القرويين وهناك الإشهاد المتمثل في شخصين. والوقف يعطينا معلومات قيمة عن قيمة المخطوط، وعن مكانه، وزمانه، ومعطيات حضارية أخرى جديرة بأن ننتبه إليها.

---

(1) أحمد شوقي بنبين دراسات في علم المخطوطات والبحث الببليوغرافي، ط 2، 2004م ص 118 وما بعدها.

(2) المخطوط خ. م، 5394.

2-5 شروط الواقفين

من الشروط التي يمكن استخراجها من المخطوطات والمكتبات المحبسة ما يلي:

1-2-5 عدم إخراج الكتاب

ومثال ذلك ما اشترطه السلطان عبد الحفيظ في تحبيسه لنسخة من نشر البنود على خزانة جامع القرويين[1]، وما اشترطه السلطان المريني أبو عنان من عدم إخراج ديوان ابن الجلاب الموجود في أربعة أسفار من خزانة القرويين بفاس. وما اشترطه عبد السلام التيدسي السندالي من ضرورة إبقاء المخطوط في المكتبة، وحظر الإعارة، كيفما كان نوعها.

2-2-5 عدم إعارة الكتاب

ومثال ذلك ما اشترطه ابن خلدون في كتاب العبر إلا في حالة الاستثناء إذا كان هناك رجل ثقة ويقدم رهنا على الكتاب، وما صنعه أحد الواقفين من تحبيس مكتبة مدرسة المحمودية بالقاهرة واشتراطه ألا يخرج منها شيء.

3-2-5 عدم نسخ الكتاب

ومثال ذلك ما اشترطه المولى إسماعيل في تحبيسه لنسخة من كتاب الشفا على خزانة جامع القرويين[2]

4-2-5 التحفظ في الاستفادة من المكتبة برمتها

ومثال ذلك ما رأيناه في وقفية المكتبة التيدسية من كونها حصرت

---

(1) تنظر الوثيقة بالخزانة العلمية ص: 66.

(2) الخزانة العلمية ص: 65 جاء في الوقفية ما يأتي "وقفا مخلدا لا يعقبه فسخ ولا يطرقه نسخ".

الاستفادة من المكتبة المذكورة في العلماء والطلبة الذين ينتمون إلى العائلة التيدسية دون غيرها.

6- آفات الوقف:

نستنتج أخيرا أن الوقف هو أهم عنصر في تكوين الخزائن الخاصة والعامة في المغرب، فهو، لهذا الاعتبار، البوابة الأساس في تشكيل تراثنا المكتوب ونستنتج، من جهة أخرى، أنه لا يمكن أن نتحدث عن خزائن الكتب دون حديث عن الوقف لأنه مرتبط بها ومتصل بها بشكل قار. ولا يسعنا في هذا الباب إلا أن نفتخر بهذا الإجراء الشرعي العملي في تداول المعرفة، إنه مفخرة الأمة الإسلامية بدون منازع. فإذا تبصرنا الدفاتر التليدة، والأسفار القديمة، وحتى الخروم المفككة في جنبات الخزائن، ألفينا أن كل سفر هو شاهد بشكل من الأشكال على هذا الإجراء الإحساني، أو على إجراءات أخرى قريبة منه كالوصية والتبرع ونحو ذلك. وبالرغم من هذه المزايا التي تنطق بها المخطوطات المحبسة والمكتبات المحبسة أيضا فإننا نسجل بمضض الملاحظات الآتية:

6- 1 الإنتهاك البشري للوقف

وأتحدث هنا عن مجموعة من السلوكات المنحرفة التي ألحقت ضررا كبيرا بهذا التراث المحبس. ومن ذلك ما كان يفعله مجموعة من المتطفلين على المعرفة من تقطيع الصحائف من الكتب المحبسة، وأذكر في هذا الباب أنني في لحظة البحث[1] تضايقت يوما في قاعة المخطوطات بالخزانة الوطنية (العامة سابقا

(1) شهر ماي من 1994م.

بالرباط) من سلوك الموظف المسؤول عن القاعة بإكثاره المشي بين القراء والتحديق فيهم فاقتنصت وحدته وأبديت تبرمي من هذا السلوك، فكان أن صب علي جام غضبه من سلوك مجموعة من القراء الذين يقطعون المخطوطات فشدهت وعذرته وقلت في خاطري "سمكة نتنة تنتن الأسماك الأخرى". ومن هذه السلوكات المشينة عدم إرجاع الكتب المستعارة، وضمنها المحبسة حتى إن كبريات الخزائن المغربية إنما نضبت وتراجع عدد أسفارها بشكل مهيب بسبب

هذه الآفة الخطيرة، فعدد كتب خزانة القرويين الآن لا يتجاوز الألف مخطوط[1]، في اللحظة التي قال عنها "ألفرد بل" في برنامجه إنها وليس بعيدا عن الآن (في بداية القرن العشرين كانت تتجاوز العشرة آلاف سفر) والأمر نفسه حصل لمكتبة ابن يوسف بمراكش، ومكتبة سيدي امحمد الناصري بتمكروت، والمكتبة العامة بتطوان، حتى إن القدامى كان يخشون الإعارة ويمقتونها. وهناك تقييدات كثيرة تطفح بها عشرات المخطوطات تشهد على مقتهم لهذه العملية الآفة، فتارة نجد أن مالك المخطوط يدون شيئا يظهر فيه مقته لإعارة وهجومه عليها، كما جاء في نهاية المخطوط خ. م، 12925 " الحمد لله وحده:

ألا يـــا مـــستعير الكتـــب دعـــني فـــإن إعارتـــي للكتـــب عـــار

(1) وقفت على واقع خزانة القرويين ضمن بعثة علمية بتنظيم مؤسسة الفرقان أثناء الدورة التدريبية الرابعة لفهرسة المخطوطات المنعقدة في الفترة ما بين 27 ربيع الأول 1422 هـ و27 ربيع الثاني 1422 هـ بتعاون مع الخزانة العامة بالرباط. هذا دون أن أتحدث عن الزيارات الخاصة لهذه المكتبة التي حملتني، في واقعها الحالي، على البكاء في كثير من الأحيان.

فمحبوبي من الدنيا كتاب فهل أبصرت محبوبا يعار. "

أو يشترط شرطا مثل الرهن أو القسم:

" إني حلفت يمينا غير كاذبة ألا أعير كتابي الدهر إنسانا

إلا برهن وإيمان مؤكدة كي لا يضيع كتابي حيث ما كانا"

وأريد في هذا الباب أيضا ما صنعته اليد البشرية عن قصد من إغراق وإحراق بسبب الاختلاف الديني، أو المذهبي، أو العرقي، أو ما إلى ذلك من أمور تحفل بها بطون الأسفار التاريخية. وإذا ما أجلنا أبصارنا في تاريخ المكتبة المغربية ألفينا أن مجدا كبيرا ضاع منا لأسباب عديدة حتى إن خزائن الموحدين وما قبل الموحدين لم يبق لنا منهم إلا الأسماء. ويعطينا محمد العابد الفاسي مثالا واحدا يربكنا في هذا الباب يتعلق بخزانة أبي يعقوب يوسف الموحدي قائلا: "هذه خزانة أبي يعقوب من الموحدين مما أنفقت المصادر التاريخية على وجودها، وأنها كانت بكثرة كتبها تضارع خزائن الأندلس الكبرى، فأين ذهبت جميع تلك الدفاتر، وهل وصلنا من بقيتها شيء. إن المسألة في نظري بسيطة جدا سيما ونحن نعرف أن المغرب انتابته عدة فتن وثورات وإتلاف مقصود في كثير من الأحيان"[1].

وأحرق الإفرنج مكتبة دار العلم بطابلس، وكان بها ثلاثة آلاف ألف كتاب منها خمسون ألف مصحف[2] لاشك أن جزءا وفيرا منها كان محبسا قال الكتاني في هذا الباب "وفي أواخر دولة الفاطميين كان بطرابلس الشام خزانة

(1) الخزانة العلمية. ص: 12.

(2) تاريخ المكتبات الإسلامية ص: 31.

كتب تعرف بدار العلم قال الشيخ يحيى بن أبي طي حميد النجار الغساني الحلبي فيما نقله عنه ابن الفرات: لم يكن في جميع البلاد مثلها حسنا وكثرة وجودة. وقال حدثني أبي قال: حدثني شيخ من أهل طرابلس قال: كنت مع فخر الملك ابن عمار صاحب طرابلس وهو في شيرز، وقد وصله أخذ طرابلس (الذين أخذوها إذ ذاك عسكر الصليبين) فأغمي عليه وأفاق ودموعه متتابعة وقال: والله ما أسفي على شيء كأسفي على دار العلم. فإن فيها ثلاثة آلاف ألف كتاب، كلها في علم الدين والقرآن والحديث والأدب. وقال: إن بها خمسين ألف مصحف وفيها عشرين ألف تفسير لكتاب الله. قال أبي: وكانت هذه دار العلم من عجائب الدنيا وكان بنو عمار قد عنوا بها العناية العظيمة، وكان فيها مائة وثمانون ناسخا ينسخون بالجراية والجامكية، منهم ثلاثون نفسا لا يفارقونها ليلا ولا نهارا، وكان لهم في جميع البلاد من يشتري لهم الكتب المنتخبة، قال: ولما دخل الأفرنج إلى طرابلس أحرقوا دار العلم، وكان السبب في ذلك أن بعض القسس لما رأى تلك الدار هالته، واتفق أنه وقع في خزانة المصاحف الكرام فمد يده إلى مجلد فإذا هو مصحف، ثم إلى آخر فرآه كذلك، ثم إلى آخر فوجده مصحفا حتى عد عشرين مصحفا، ثم قال: كل ما في هذه الدار فهو قرآن المسلمين فلذلك أحرقوها"[1].

ونذكر في هذا الباب مآل المكتبة الزيدانية التي كانت تحتوي على عيون الأسفار، وفيها كم وافر من الدفاتر المحبسة كيف قرصنها العلوج، وانتهوا بها إلى بلاد الإسبان، وأتى الإحراق، ولم يبق منها الآن في الإسكوريال إلا حثالة

(1) تاريخ المكتبات الإسلامية ص: 31.

الكأس، ، وذكر الأستاذ أحمد شوقي بنبين بأنها كانت تحتوي على سبعين حملا من الكتب العربية[1].

2-6 الإنتهاك الطبيعي للوقف

وأقصد ما طوته حدثان الدهر وصروفه من قيم الأسفار المحبسة وغير المحبسة، ومن ذلك الفياضانات التي حرمتنا من جزء وفير من تراثنا المكتوب، وألسنة اللهيب التي حصدت آلاف الأسفار عبر العصور، وصابت من البلدان والشعوب الفاقة وقلد ذات اليد وما سواها من أمور كانت خارجة عن إرادة الإنسان. والحديث عن مصائب الكتاب في هذا الباب هو لغط زائد طالما أم مصادر التاريخ تعج بالطرائف الكثيرة في هذا الباب. ومما وقفت عليه من نفوق الدفاتر المخصوصة ببلد المغرب ما ذكره المراكشي من كتب كثيرة ألفت على عهد الإمارة الأموية بالأندلس من مثل الكتب التي ألفها العلماء برسم خزانة تغلب المنصور بن أبي عامر. ومنها كتاب الفصوص الذي ألفه أبو العلاء وغرق في النهر قال عبد الواحد المراكشي: "وألف أبو العلاء هذا كتبا، فمنها كتاب سماه كتاب الفصوص، على نحو كتاب النوادر لأبي علي القالي، واتفق لهذا الكتاب من عجائب الاتفاق أن أبا العلاء دفعه حين كمل لغلام له يحمله بين يديه وعبر النهر، نهر قرطبة، فخانت الغلام رجله فسقط في النهر هو والكتاب، فقال في ذلك بعض الشعراء – وهو أبو أبو عبد الله محمد بن يحيى المعروف بابن العريف – بيتا مطبوعا بحضرة المنصور، وهو:

قد غاص في البحر كتاب الفصوص وهكذا كل ثقيل يغوص

(1) تاريخ خزائن الكتب بالمغرب، ترجمة مصطفى طوبي ص: 187.

فضحك المنصور والحاضرون، فلم يرع ذلك صاعدا ولا هاله، وقال مرتجلا مجيبا لابن العريف:

عـــــاد إلى معدنـــــــه إنـــــما توجـد في قعـر البحـار الفـصوص"[1]

وذكر المراكشي كتابا آخر هو كتاب الهجفجف وكتاب الجواس ويقول عنه: "وهو كتاب مليح جدا انخرم أيام الفتن بالأندلس فنقصت منه أوراق لم توجد بعد"[2].

وقد نقل لنا العلامة عبد الحي الكتاني جملة من الإشارات إلى مأساة المكتبة العربية لأسباب طبيعية، ومنها قوله عن مكتبة الوزير سابور بن أردشير: "ومن المكاتب المشهورة ببغداد في ذلك العهد أيضا مكتبة الوزير سابور ابن أردشير وزير بهاء الدولة بن بويه، التي بناها في بغداد عام 383 هـ، وكان بها نفائس منها نحو مائة مصحف بخطوط ابن مقلة وقد نالتها النار في حريق الكرخ ببغداد عام 451 هـ".

ولعل هذه الأمثلة تظهر لنا بشكل صارخ أننا لم نظفر إلا بالنزر القليل من تراثنا الذي كان يعد بملايين الآلاف من الأسفار التي أسست لحضارة القرآن، وانتشرت في بقاع الدنيا راسمة صورة هذه الحضارة الخالدة بشكل دقيق وكثيف.

---

(1) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تأليف عبد الواحد المراكشي، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، دار الكتاب الدار البيضاء ط: 7، 1978 ص: 51.

(2) الكتاب نفسه ص: 53.

7 – الوقف وإكراهات العصر:

إن أهم شيء تمليه راهنية المكتبات التراثية المحبسة والمخطوطات المحبسة أيضا هو الغوث. إن البنود الوقفية وخاصة ما يتعلق بالشروط الوقفية تتعارض في بعض الأحيان مع المصلحة العامة بشكل يجعلنا عاجزين على أن نقول شيئا في هذا الأمر. إن الأحفاد التيدسيين مثلا يتحفظون من إخراج الكتب للناس، ويتهربون من أي اقتراح لإنقاذ المكتبة، وإلحاقها بمكان مناسب للصيانة والمعالجة، وذلك تمسكا حرفيا بشروط الوقفية التي تحظر هذا الأمر على الأجانب. فالتراث المخطوط يشكل تراثا، وتاريخا، وآثارا حفرية قيمة جدا، إذ لا نعدم في هذا التراث مسودات بخط ذويها، ولا نعدم فيه تقاييد وطررا على ظهور الأسفار حمالة للكثير من المعطيات الحضارية التي سكت عنها التاريخ في كثير من الأحيان. فنحن إذن بإزاء كنوز يجب أن نسرع إلى إنقاذها والحفاظ عليها. ولهذا الاعتبار، فنحن قلنا ونقول وسنقول إن تراثنا المخطوط في أزمة حقيقية. فإذا استثنينا بعض المكاتب التي تتولاها الدولة من مثل الخزانة الوطنية بالرباط، والخزانة القرويين بفاس، وخزانة ابن يوسف بمراكش، وخزانة الحسنية بالرباط، فإن باقي الخزائن المغربية الخاصة تحتضر. وطالما أننا معنيون بالخزائن المحبسة في المقام الأول، فنحن نقول إن الخزانتين اللتين قدمنا وثيقتي تحبيسهما للعيان؛ وأريد خزانة تيدسي، وخزانة رودانة يوجدان في أحلك أيامهما اليوم، ويجب أن يتم تدارك هذه الأسفار التي عانت وتعاني من الطقس وانتفاء العناية والإهمال. ولذلك فنحن ندعو إلى ضرورة تدارك هذه الكتب والمكتبات المحبسة عبر مجموعة من الأشكال نذكر منها ما يلي:

7-1 الجانب الفقهي:

وذلك أن ينتدب لهذا الباب مجموعة من جهابذة العلماء، ويقفون بحقيقة الوقف المكتبي، ويدرسون حقيقته في ضوء الحالة المؤسفة التي توجد عليها الخزائن المحبسة، والصورة الحزينة التي يوجد عليها السفر المحبس. ويصدرون فتاوى أو إرشادات متوخين فيها الحفاظ على ما تبقى من هذه الآثار التراثية القيمة التي كانت وراء نهوض أمم وحضارات سابقة ووراء مجد تاريخي عريق. لأن التعامل النصي مع الوقفيات القديمة أضحى أمرا متجاوزا في ظل الواقع المؤسف الذي توجد عليه العشرات من المكتبات والأسفار المحبسة.

7 -2 التعريف المعلوماتي بالتحبيسات:

وذلك أن تحترم بنود الواقفين، وتدرج في الأوعية الإلكترونية للمعلومات لكي يقف القارئون على هذه الوقفيات دون العودة إلى السفر. وهذه خدمة سابقة عن التعامل المباشر مع المخطوطات، وأعتقد أن التعبئة الإلكترونية للمخطوطات ستمكننا من توفير بنك معلومات بهذا الخصوص، ندخل إليه من مداخل متعددة من مثل اسم الواقف، أو الجهة الموقوف عليها، أو شروط الوقف، أو الشهود، أو أماكن الوقف. وأرى أن هذا العمل أضحى ضربة لازب في العصر الحديث.

7-3 نهوض الدولة بمسؤولية الخزائن والكتب المحبسة:

وذلك بأن تخصص للتراث المحبس ميزانية خاصة، وتفرد لجنة لإحصاء هذا التراث، وفهرسته، والتعريف به، على أن تنهض الدولة بجمعه وإيلائه العناية اللازمة. وطبعا هذا الأمر لا يمكن القيام به إلا بسياسة هادفة لهذا الأمر، وأشير إلى أن جائزة الحسن الثاني في المغرب خطوة قيمة جدا من أجل

إنقاذ المخطوطات من الضياع، وذلك بتوفير صور للمخطوطات المرشحة للجائزة سواء توفقت في الأمر أم لم تتوفق، ، وأتمنى أن تبذل مجهودات جديدة من أجل تجميع المخطوطات وتوفير العناية اللازمة لها، كأن يتأسس مركز في الجنوب مثلا لجمع كل الخزائن المحبسة شريطة احترام اسم الواقف.

4-7 تجميع الخزائن الصغرى المحبسة:

وذلك لكي تستفيد المخطوطات من البناية المناسبة، ومن الأغشية الواقية من الأرضة وتغيرات المناخ، ومن التكييف المناسب للقاعة، ومن التعقيم الدوري الذي يجب أن ترضخ له المخطوطات سواء كان طبيعيا أو كيماويا، على أن تبقى أسماء الواقفين في ظهور الأسفار أو مكتوبة في الأجنحة المخصصة لمكتبات بعينها. وأذكر في هذا الباب بعض الخزائن المحبسة التي يجب أن ترضخ لهذا الأمر، مثل مكتبة تيدسي بمنطقة هوارة والمكتبة الأزاريفية التي هو مفرقة عند الأحفاد التيدسيين، ومكتبة الإمام علي بتارودانت، وحتى الكتبة الناصرية يجب أن تحظى بهذا الأمر من منطلق واقعها المزري الآن. فهذه المكتبات وغيرها كثير في جنوب المغرب، يجب أن تجمع في خزانة واحدة ترعاها الدولة، وتوفر لها شروط الصيانة والمعالجة.

5-7 التصوير:

وهو في حقيقته تدارك للمخطوط، وذلك بالقيام بصناعة الميكروفيلم أوالميكروفيش، أو السكانير، وإدراج المخطوطات في الأقراص مع إبقاء اسم الواقفين على هذه المصورات، على أساس أنها فرع من الوقف الأصلي. ولذلك نتمنى أن يبادر الفقهاء إلى إعادة النظر في البنود الوقفية التي تمنع النساخة. وتجويز ذلك للمصلحة العامة لأن المخطوط وخاصة في مجموعة من الخزائن الخاصة سائر

إلى الضياع التام لا محالة إذا لم يحل هناك تفهم لهذا الأمر. ولعل صناعة السكانير للمخطوطات يدخل في إطار المعالجة الإلكترونية للكتب، وهي ضربة لازب في العصر الحاضر، وذلك حتى نتمكن من إراحة الكتاب من تقليبات الأيادي المضرة بالسفر. خاصة إذا عرفنا الأثر السلبي الذي تخلفه الأيادي على أوراق المخطوطات.

6-7 ترميم الكتب الهرمة:

وندعو أيضا إلى التسريع بترميم الأسفار المحبسة المنخرمة في المقام الأول، وذلك طمعا في دوام الأجر للواقفين، ويكون ذلك بالرغم من الشروط التي تحظر ذلك، لأن عملنا هذا سيكون في مصلحة السفر الموقوف، وفي مصلحة الواقف، وفي مصلحة التراث، وفي مصلحتنا نحن الألى ننتفع بهذا التراث. لأن الواقفين في عمومهم لم يكونوا يفكرون في شيء أضحى مسلمة مكتبية الآن وهو عمر المخطوط. فالمخطوط له عمر محدد، وبعد ذلك سيتعرض للتلاشي والتآكل والموت. واعتبارا لهذا الأمر أضحى تداركه للمصلحة العامة ضربة لازب في العصر الحديث. ثم إننا نعرف أن أشكال الترميم مختلفة، إذ إن الترميم التقليدي القديم هو مضر بالمخطوطات أكثر مما هو نافع لها، لذلك نستحسن الترميم اليدوي الحديث الذي ينطلق من دراسة الألياف، لاستحضار مادة ألياقية مناسبة لنوع المخطوط وعمره.

إستنتاجات

وقوفا بهذا الحد يمكن القول إن موضوع وقف الكتب ما زال بكرا في أدبيات البحث المكتبي، في المغرب على مستوى حصر المادة وعلى مستوى الدراسة. فعلى المستوى الأول نقول إن هناك مكتبات كثرا وخزائن كتب طافحة بأعلاق الأسفار وذخائر الكتب ما زالت في حاجة إلى مسح علمي

يتوخى الوقوف بالمادة العلمية المجسدة للوقف الكتبي، إذ ستساعدنا هذه المادة على بلورة تركيب موفق في هذا الباب، أما على المستوى الثاني فهو نتيجة للمستوى الأول لأن الدراسة الحفرية البحتة لا تستقيم بدون مادة كاسحة تتعقب جزئيات الحياة الثقافية والاجتماعية في مختلف العصور، وكلما كثرت مادة الدراسة كلما حصلت إمكانية الوصول إلى تركيب موفق في هذا الباب. وطبعا أنا أريد بالتركيب وضع نظرية مفسرة للوقف المكتبي بعد المرور بروز عدد وفير من الفرضيات وهو الأمر الذي يسري على جملة من القضايا الكوديكولوجية الأخرى التي سبق لنا فيها القول في أبواب خاصة.

لقد كانت هذه الدراسة عبارة عن معطيات عامة وضعنا من خلالها اليد على مجموعة من الأمور المرتبطة بالوقف المكتبي من قريب أو من بعيد بدءا بمسألة المفهوم والمشروعية في ارتباطها بطبيعة العين، ثم تحدثنا عن الجانب الببليوغرافي وهو التماس لما وصل إليه علمنا في هذا الباب، وتحدثنا عن تاريخ الوقف، وهو موضوع يكاد يكون مستقلا ومنضويا تحت التاريخ الثقافي، إلا أنه هام وجوهري للخوض في الرؤية الحفرية لدراسة الوقف من منطلق أن الأمرين متقاطعان بشكل صارخ، وتحدثنا عن صنوف الواقفين للكتب والمكتبات في الخزائن المغربية إذ وقفنا، في هذا الباب، بالسلاطين والقواد والنساء والنواب ثم وقفنا بنموذج من المادة الوقفية سواء تلك المتعلقة بالمكتبات أو بالكتب، لكي ننتهي إلى بناء الوقفية أو المكونات الأساسية التي تتكون منها الوقفية وأخيرا تعرضنا لاصطدام ظاهرة الوقف بقضايا الزمن والعصر لكي نقول في آفات الوقف وإكراهات العصر التي قد تنحو بالفقهاء إلى إصدار فتاوى تراعي راهنية الوقف المكتبي في العصر الحاضر. وعموما

نعترف أننا عالجنا الظاهرة بشكل عمومي وموسع، ولكن قصدنا أن نؤثث لاشتغال حفري ينظر إلى الظاهرة في إطار جملة من المعطيات المكتوبة التي تشكل مكونا أساسا من مكونات علم المخطوطات. ثم إننا ننوي، إن سنحت الظروف، توسيع بحث خاص ومستقل في هذا الباب يتجاوز المكتبة المغربية إلى ما عداها من مكتبات تراثية تشكل في مجملها تراثا مشتركا للأمة الإسلامية كلها. ويبقى الوقف في هذا الباب بابا مغريا تتحلب له أشداق المهتمين بإعادة بناء تاريخ جديد يراعي لا شعور هذا الإرث المكتوب الذي لا يساورنا شك في سلامة طويته، وقوامة مادته الناطقة عبر الأزمنة والأمكنة.

خاتمة

خاتمة

وختاما نقول إن هذه الدراسات التي توخينا فيها التركيز على المعطيات المادية هي، من جهة، بناء مادي متماسك يشكل أرضية مستقلة للبحث الأركيولوجي، الأمر الذي يعطي مشروعية لإجرائية علم المخطوط، وهي تشكل من جهة أخرى بوابة لإضاءة تاريخ مسكوت عنه لا شعوري يكمن في مادية المخطوطات نفسها، ومن شأنها تجلية معطيات قد تكون محظورة في التاريخ الرسمي، أو ذات شأن كبير في مشروع بناء تاريخ جديد في حضارة ضنت كتاباتها بالشيء الكثير.

ثم إننا نرى أن الذي ألحم هذه الأبحاث هو هذه المحاولات في الملاحظة المباشرة للمخطوطات، وهي الخطوة الإجرائية الأولى في المنهج الذي طالما نصصنا عليه، والحق أنه كان يجب أن نسم هذا المجموع بـ: "محاولات في الملاحظة" لولا بعض الإشراقات القليلة في التركيب. وإن الناظر إلى هذا المجموع في عجلة القراءة سيكتشف ظاهريا أنها فصول مختلفة ومتنابذة فيما بينها، إذ كيف نجمع القول في القدس الشريف، بمسألة المخطوطات المهاجرة، بمسألة بدايات النصوص، بمسألة الوقف إلخ، إلا أن إنعام النظر ومراودتها منهجيا سيجلو الخيط الرابط بينها، والذي يوقع إجرائية المنهج في دراسة المخطوط العربي الإسلامي، وسيجعلنا نطمئن إلى أن الأساس في هذه الأبحاث هو أداة الاشتغال التي نراها مجدية في دراسة هذا الكم المتلاطم من المخطوطات العربية الإسلامية. لقد كانت لدي وقفات أكاد أقول متكاملة

بالرغم مما اعتراها من غموض في القصد أحيانا، ، ابتداء من التقديم المنهجي الذي جلوت فيه المنهج الذي سيسري على كل الفصول الأخرى، وهو الطريقة الحفرية في دراسة المخطوط، وذلك حسب تصوري الخاص للحفر كما أسلفت فيه القول في أكثر من مناسبة في هذا الكتاب. ثم إن القول في موضوع المخطوط على النحو الذي تخطفته مجموعة من الأبحاث العملية في هذا المجموع مثل مخطوطات المقري، والمخطوطات المهاجرة، ومخطوطات القدس الشريف هو تأكيد لهذه المادية الملحوظة على منهج الاشتغال.

ومع ما قدمنا في هذا العمل من محاولات تطبيقية في المخطوط، فإن العمل يبقى موجها على المستوى المنهجي لأن الدراسة التطبيقية الفاعلة هي التي تنحو إلى التجزيء وعدم الركون إلى المادة المحصورة. فالتركيب هو بالأصح إفضاء إلى أكبر نسبة من المخطوطات، ، وحتى في ظل اتساع رقعة البحث أو مادة الدراسة، فإن البحث الرصين يجب أن يتجه الآن إلى مزيد من التخصص، لأن علم المخطوطات محاصر بالتاريخ ولا يمكن أن نتحدث عن التركيب أمام مادة مترامية في الزمان والمكان ما لم نبادر إلى مزيد من الدقة والكفاية الوصفية. علما أن إشكالية علاقة العلم بالتاريخ تظل قائمة ما لم نبادر أيضا إلى التصدي ابستيمولوجيا لعلمية العلم، وأعتقد أن هذا الأمر قد أشبعناه قولا، ، ولم يبق إلا أن نشرع في الاشتغال الميداني بالشكل الذي نراه سليما ومترتبا على الملاحظة بشكل مباشر.

الفهارس العامة

فهرس المصادر

فهرس المراجع العربية

فهرس المراجع الأجنبية

فهرس المحتويات

1 - فهرس المصادر

المخطوطات المذكورة حسب أرقامها في خزائن الكتب المغربية.

الخزائن والرموز التي قد نستعملها لها:

الخزانة الحسنية بالرباط: خ، ح، ر

الخزانة الوطنية بالرباط: خ، و، ر

خزانة ابن يوسف بمراكش: خ، ي، م

خزانة القرويين بفاس: خ، ق، ف

الخزانة الصبيحية بسلا

الخزانة الناصرية بتمكروت خ، ن، ت

خزانة المسجد الأعظم بتازة: خ، م، أ، ت

خزانة الجامع الكبير بمكناس: خ، ج، ك، م

خزانة تيدسي بهوارة: خ، ت، هـ

خزانة الشيخ محمد فضل بن الشيخ مربيه ربه بن الشيخ ماء العينين

خزانة ماء العينين علي بن الشيخ مربيه ربه

خزانة محمد الهاشم الوناس بطاطا

2- فهرس المراجع

أولاً: المراجع العربية:

- آداب إعارة الكتاب في التراث الإسلامي، محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، لبنان؛ 1426هـ 2005 م.
- اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سنا الآثار لمحمد بن القاسم الأنصاري، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، ط. 2 الرباط، 1403 هـ1983م.
- تاريخ الأوقاف الإسلامية بالمغرب في عصر السعديين من خلال حوالات تارودانت وفاس تأليف الدكتور مصطفى بنعلة (في سفرين)، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المملكة المغربية: 1428هـ 2007م.
- "تاريخ خزائن الكتب بالمغرب" لأحمد شوقي بنبين، ترجمة مصطفى طوبي، منشورات الخزانة الحسنية: 2003م.
- تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب، تأليف الشيخ عبد الحي الكتاني، ضبط وتعليق أحمد شوقي بنبين وعبد القادر سعود، منشورات الخزانة الحسنية بالرباط، 2004م.
- تاريخ الوراقة المغربية، صناعة المخطوط المغربي من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة، محمد المنوني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط: 1991 م.
- التيسير في صناعة التسفير لبكر بن إبراهيم الإشبيلي، مدريد 1959 م.
- الخزانة العلمية بالمغرب، محمد العابد الفاسي 1380 هـ 1960م.
- دراسات في علم المخطوطات والبحث الببليوغرافي الأستاذ أحمد شوقي بنبين، مراكش، الطبعة الثانية: 2004م.
- دليل مخطوطات الخزانات الحبسية، إعداد وزارة الوقاف والشؤون الإسلامية،

منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية: 1422هـ 2001م.

- دور الكتب في ماضي المغرب، محمد عبد الهادي المنوني، منشورات الخزانة الحسنية: 2005 هـ.
- دور الوقف في الحياة الثقافية في المغرب في عهد الدولة العلوية، الدكتور السعيد بوربكة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية: 1417هـ
- الرسالة المجازة في معرفة الإجازة، نسخة مصورة في الخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم: 14442.
- زهرة الآس في بناء مدينة فاس، لعلي الجزنائي، تحقيق ألفرد بل، الجزائر 1340هـ 1922م.
- سوس العالمة، المختار السوسي مطبعة فضالة المحمدية 1380هـ
- صبح الأعشى، للقلقشندي، القاهرة: 1414هـ.
- صناعة تسفير الكتب وحل الذهب لأبي العباس أحمد بن محمد السفياني، فاس 1919م.
- صناعة المخطوط العربي من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة، منشورات كلية الآداب بالرباط: 1991م.
- علم الاكتناه العربي الإسلامي، الدكتور قاسم السامرائي، الرياض 1422هـ- 2001م.
- فهرس مخطوطات مكتبة عبد الله كنون إعداد عبد الصمد العشاب مدير المكتبة منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية: 1417 هـ 1996م.
- المخطوط العربي وعلم المخطوطات(ندوة)، كلية الآداب، الرباط، 1994م.
- "مدخل إلى علم المخطوط" لصاحبه "جاك لومير" ترجمة مصطفى طوبي منشورات الخزانة الحسنية الرباط، 2006م.
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تأليف عبد الواحد المراكشي، تحقيق محمد

سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، دار الكتاب؛ الدار البيضاء. ط: 7، 1978

- معجم مصطلحات المخطوط العربي)قاموس كوديكولوجي)، أحمد شوقي بنبين مصطفى الطوبي، منشورات الخزانة الحسنية، الرباط الطبعة الثالثة، مزيدة ومنقحة: 2005.
- معجم الأدباء ياقوت الحموي طبعة مصر 1925م.
- المعسول، المختار السوسي، مطبعة النجاح، الدار البيضاء: 1960 م.
- مقالات في علم المخطوطات، مصطفى الطوبي، دارالقلم، الرباط: 2000م.
- المقدمة، لابن خلدون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان: 1413هـ 1993م.
- منجزات علماء سوس الجزء الخامس، (ندوة) منشورات جمعية علماء سوس 2004 م.
- الكتاب العربي وعلم المخطوطات، فؤاد أيمن سيد القاهرة: 1997م.
- "الوقف وأثره في تنمية موارد الجامعات" حنيفة. منشورات جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية 1425 هـ2004م.
- الوقف في الفكر الإسلامي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية 1416هـ 1996 م.
- ترجمة عن الفرنسية نزار أباظة ومحمد صبّاغ. – بيروت: دار الفكر المعاصر، 1411هـ– 1991م.
- "الوقف وبنية المكتبة العربية" يحيى محمود ساعاتي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض؛ 1408 هـ 1988م.
- الوقف وأثره في تنمية موارد الجامعات، تأليف الدكتور سليمان بن عبد الله بن حمود أبا الخيل وكيل جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية منشورات الإدارة العامة للثقافة والنشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية 1425 هـ – 2004م

ثانياً: المراجع الأجنبية:

- *(Benjalloun–laroui), Latifa les bibliothèques au Maroc, Editions Maisonneuve et larose, Paris, 1990*
- *(Bosch) Gulnar ,Carswell John and Petherbridge Guy, Islamic bindings and bookmaking, Chicago, The Oriental Institute, 1981*
- *(Bozzolo) Carla et Ezio Ornato Pour une histoire du livre manuscrit – trois essais de Codicologie quantitative. CNRS, Paris 1983*
- *Catalogue des manuscrits arabes Paris 1983, article (The codicology of the islamic manuscrits).*
- *(Dain) A. , Les Manuscrits , Belles Lettres , Paris , troisième édition, 1975*
- *(Gacek) Adam, the arabic manuscript tradition, brill, 2001*
- *7 L. R. P. - (Gilissen) léon Prolégomènes à la codicologie Editions scientifiques, story scientia S GAND 1977*
- *(Lemaire) Jacques Introduction à la codicologie, louvain-la-neuve; 1989*
- *Manuel de codicologie des manuscrits en écriture arabe, François Déroche avec la collaboration de Annie Berthier, Marie-Geneviève Guesdon ,Bernard Guineau ,Francis Richard, Annie Vernay – Nouri ,Jean Vezin ,Muhammad Isa Waley,Bibliothèque nationale de France, 2000.*
- *(Muzerelle) Denis Vocabulaire codicologique, éditions CEMI 1985p*
- *(Posener) Georges Dictionnaire de la civilisation Egyptienne-*
- *Scribes et manuscrits du Moyen – Orient, sous la direction de François Déroche et Francis Richard ,Bibliothèque nationale de France, Paris, 1997,*
- *The codicology of the islamic manuscripts. Al Furquàn Islamic Heritage foundation London 1995 p 29*

3- فهرس المحتويات

المقدمة 5
الصورة المادية للمخطوط العربي 13
مفهوم علم المخطوطات: 15
الحفريات التقنية في علم المخطوطات: 22
I - الحفريات التقنية: 23
مسألة صناعة مواد الكتابة: 23
مسألة الطي وصناعة الملازم: 25
مسألة ترتيب الصفحات وخزمها: 26
مسألة التسطير وتركيب الصفحات: 27
مسألة التسفير: 29
II- الحفريات النسقية في علم المخطوطات: 30
النساخة: 30
مخطوطات القدس الشريف في الخزائن المغربية من أجل دراسة كوديكولوجية 45
مخطوطات القدس في الخزانة الحسنية بالرباط: 47
مخطوطات القدس في الخزانة الوطنية بالرباط: 49
مخطوطات القدس في خزائن مغربية أخرى: 50
مكانة القدس الشريف في نفوس المغاربة: 52
التراث المقدسي المغربي بين المخطوط والمطبوع: 55
الصورة المادية لمخطوطات القدس الشريف في المغرب: 58
الصورة التقنية للمخطوطات المدروسة: 59

التسفير: 61
الصورة النسقية للمخطوطات المدروسة: 62
بداية النص ونهايته: 63
التعقيبة: 65
المقابلة: 66
التملك: 66
مخطوطات النحو بالخزانة الحسنية بالرباط؛ مقاربة كوديكولوجية 73
انتماءات المخطوطات وقدمها: 74
البعد الحفري التقني في مخطوطات النحو: 76
مادة الكتاب: 76
الطي والتركيب الصفحات: 78
الثقوب والتسفير: 80
الترميم: 81
النساخة: 82
بداية النص: 85
نهاية النص: 85
مخطوطات المقري بالخزانة الحسنية بالرباط؛ دراسة في بدايات النصوص Incipits 91
مفهوم (بداية النص): 93
جرد بدايات النصوص في النسخ المدروسة: 95
البنية الحفرية للبدايات: 97
بناء بداية النص عند المقري: 102
اللاوعي الثقافي لبدايات النصوص: 103
البعد العقدي: 103
البعد التصوفي: 105

الإصرار على النسب والوطن: 106
المخطوطات المهاجرة في مكتبة تيدسي بالمغرب؛ دراسة كوديكولوجية 111
التناول الكوديكولوجي للنسخ المدروسة: 118
الجزائرية في العقائد الإيمانية في التوحيد لأبي العباس أحمد بن عبد الله الجزائري: 118
صغرى السنوسي لمحمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي: 120
"شرح عقيدة السنوسي" لمحمد بن عمر بن إبراهيم التلمساني: 124
التراث الصحراوي المخطوط؛ بين الجرد الأولي والدراسة الحفرية 133
محتويات الخزائن الصحراوية: 134
مكتبة ماء العينين علي بن الشيخ مربيه ربه: 136
محاولة في الدراسة الأثرية: 139
النساخة: 142
البداية والنهاية: 142
وقف الكتب والمكتبات بالمغرب 149
1- مفهوم ومشروعية وقف الكتب والمكتبات: 155
2- تاريخ وقف الكتب والمكتبات في المغرب: 159
3- صنوف الواقفين للكتب والمكتبات في الخزائن المغربية: 163
3-1 تحبيس السلاطين: 163
3-2 تحبيس القواد: 165
3-3 تحبيس النساء: 165
3-4 تحبيس العلماء: 166
3-5 تحبيس المحسنين: 167
3-6 تحبيس النساخ: 167
3-7 تحبيس النواب: 168
4- نماذج من الوقف المكتبي: 168
4-1 نصوص من وقف المكتبات: 169

4 -2 نصوص من وقف الكتب المخطوطة: 176
5- الصورة الحفرية للوقف: 180
5- 1 بناء الوقفية: 180
5-2 شروط الواقفين 181
5-2-1 عدم إخراج الكتاب 181
5-2-2 عدم إعارة الكتاب 181
5-2-3 عدم نسخ الكتاب 181
5-2-4 التحفظ في الاستفادة من المكتبة برمتها 181
6- آفات الوقف: 182
6- 1 الانتهاك البشري للوقف 182
6-2 الانتهاك الطبيعي للوقف 186
7 - الوقف وإكراهات العصر: 188
7-1 الجانب الفقهي: 189
7 -2 التعريف المعلوماتي بالتحبيسات: 189
7-3 نهوض الدولة بمسؤولية الخزائن والكتب المحبسة: 189
7-4 تجميع الخزائن الصغرى المحبسة: 190
7-5 التصوير: 190
7-6 ترميم الكتب الهرئة: 191
استنتاجات 191
خاتمة 197
الفهارس
فهرس المصادر 200
فهرس المراجع 201
فهرس المحتويات 205